كتاب اليوم

من مذكرات سفير سابق

عصام الدين حواس

إهـــــداء ٢٠٠٨

السيدة / نعم الباز

جمهورية مصر العربية

دار
أخبار اليوم

قطاع الثقافة

كتاب
اليوم
يصدر
أول كل شهر

سبتمبر ٢٠٠٢
عدد ٤٥٧

أسعار كتاب اليوم
الثقافى فى الخارج

الجماهيرية العظمى	٢	دينار
المغرب	٢٠	درهم
لبنان	٥٠٠٠	ليرة
الأردن	٢,٥٠٠	دينار
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	١,٧٥٠	دينار
السعودية	١٥	ريالاً
السودان	٢٢٠٠	قرش
تونس	٢,٥	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتا
سوريا	١٥٠	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١,٥٠٠	دينار
سلطنة عمان	١,٥٠٠	ريال
غزة	٣	دولار
ج. اليمنية	٣٠٠	ريالاً
الصومال، نيجيريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنكا
الإمارات	١٥	درهما
قطر	١٥	ريالا
انجلترا	٣	جك
فرنسا	١٠	فرنكات
ألمانيا	١٠	ماركات
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٢٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنكات
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلنا
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٣٥٠	روبية
كندا - امريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك - واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٦	دولار

- العنوان على الانترنت
WWW. akhbarelyom. org\ketab
- البريد الالكترونى
akhbar el yom@akhbarelyom. org

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية
قيمة الاشتراك السنوى ٧٢ جنيها مصريا

● البريد الجوي ●

دول اتحاد البريد العربى ٣٣ دولارا
اتحاد البريد الافريقى ٣٨ دولارا
أوربا وأمريكا ٤٣ دولارا
أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا
٥٣ دولارا أمريكيا أو ما يعادلها

- ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور
- ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة
القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)
- فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠
- تلكس دولى : ٢٠٣٢١٠
- تلكس محلى : ٢٨٢
- قطاع الثقافة ٦ ش الصحافة
- تليفون وفاكس : ٥٧٩٠٩٣٠

كتاب اليوم

من مذكرات سفير سابق

- الدبلوماسية بين الوظيفة والمهنة
- حكايات دبلوماسية
- شاهد على حرب الخليج الثانية
- دور المرأة فى حياة الدبلوماسى
- مواجهة مع الخمير الحمر فى كمبوديا

عصام الدين حواس

تصميم الغلاف الفنان :

سيد عبد الفتاح

إهـــداء

إلى شقيقى وصديقى الدكـتور محمد زكى حواس عـالم العمارة وأستـاذها بجامعـة عين شمس ..

الذى طالما حثنى وشجعنى حتى أكتب هذه المذكرات .

ورحل فجأة فى لحظات من مـساء يوم الاثنين السابع من أغسطس عام ٢٠٠٠ .

ولم أكن قـد بدأت بعد فى جـمع أوراقى للإعداد لهـذا الكتاب ..

وفاءً .. واعترافاً بالفضل .. ،

عصـام

مقدمة

هذه صفحات من مذكرات بدأت فى الإعداد لها منذ سنوات .. تغطى فترة تربو على نصف قرن من الزمان .. تنوعت تجربتى فيها بين شاب يحسم الصراع الذى يثور فى نفسه بين العمل الصحفى الذى اتخذه هواية خلال دراسته فى كلية الحقوق من ٤٨-١٩٥٢ وبين المحاماة التى درس الحقوق ليشتغل بها .. وقد حسم الصراع لصالح الأخيرة ..

وبدأ يحاول أن يشق طريقه فى المحاماة فى أوائل الثورة عام ١٩٥٢ .. ثم يطالب مع غيره من المحامين فى عام ١٩٥٤ بإنهاء المحاكم الاستثنائية .. وحل مجلس الثورة والعودة بالبلاد إلى الحياة الطبيعية .. فتحل نقابة المحامين ..! ويسير العمال تحت مكاتبهم يهتفون : « يسقط المحامون الجهلة » !!

وتبهره ككل الشباب أضواء السلك الدبلوماسى فيتقدم مع المئات فى عام ١٩٥٥ للالتحاق به .. وينجح فى الامتحان الذى يؤديه .. ولكن تحول دون التحاقه أسباب لا علم له بها ..! فيعود إلى مهنته فى المحاماة عاقداً العزم على السير فيها حتى النهاية .. مكرساً لها كل وقته وجهده ..

ويشهد الوطن أحداثاً كبيرة .. حرب السويس عام ١٩٥٦ ..

فيتطوع فيها ضابطاً احتياطياً .. ثم الوحدة مع سوريا فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ .. التى يتحمس لها وينفعل بها ..

ثم تلعب الصدفة فى حياته شأناً كبيراً عندما تفتح له وزارة الخارجية أبوابها من جديد فى إطار توسيع السلك الدبلوماسى للجمهورية العربية المتحدة الناشئة .. فيجتاز امتحانها فى مارس ١٩٥٨ ويظل فى صراع محتدم مرة أخرى بين المحاماة وبين العمل الدبلوماسى ينتهى فى نوفمبر ١٩٥٨ لصالح الأخير .. حيث ينتهى به المطاف فى ١٣ نوفمبر ١٩٥٨ فى أحد مكاتب القصر الشهير لوزارة الخارجية الواقع قرب ميدان التحرير على بعد أمتار قليلة من نهر النيل العظيم ..

ومن هنا يدخل فى صراع جديد .. يلازمه منذ تلك اللحظة من عام ١٩٥٨ وحتى يترك العمل الدبلوماسى فى ٢٢ يناير ١٩٩٢ .. هل الدبلوماسية وظيفة أم مهنة ..؟؟ وقد انتصر ودائماً للرأى الآخر .. واعتبر نفسه صاحب مهنة وليس موظفاً .

وفى ضوء هذه الخلفيات تقرأ هذه المذكرات التى تضمنت فصلاً بعنوان « حكايات دبلوماسية » اشتملت على وقائع وقصص من بولندا وفنلندا وماليزيا ودمشق والكويت والنمسا .. وهى فى تنوعها تعد اصطحاباً للقارىء فى رحلة طويلة حول العالم .. يزور فيها أماكن غريبة .. ويلتقى خلالها بشعوب مغايرة لنا فى العادات والتقاليد .. ونظم المعيشة .. وكيف تصرف وهو بعد دبلوماسى شاب فى مواقف محرجة .. وكيف واجه مواقف صعبة .. وكيف تغلب عليها .. إلى جانب العديد من المواقف الطريفة ..

وفى فصل آخر من الـكتاب .. يتحدث عن حرب الخليـج الثانية وغزو الكويت فى أغسطس ١٩٩٠ .. من موقع شاهد عيان ..

وعند كتابة هذه السطور فى شهر نوفـمبر ٢٠٠٢، فإن الشعب العراقى يقع تحت تهـديد مباشـر من الولايات المتحدة الأمـريكية وبريطانيا باسـتخدام القـوة العسكرية لتغـيير النظام الحاكم فـيه والقضاء علـى البنية التحتيـة ومنشآته الرئيسيـة ليدخل بذلك فى مـرحلة جـديدة من المعـاناة لا يعلم إلا الله مـداها .. وقـد عـارض المؤلف مع كثـيرين تلك التهديدات كـما عارضهـا الموقف الرسمى المصرى والعربى وكثير من دول العالم ..

ولكن ذلك لم يمنع المؤلـف من تخصـيص فـصل كامل لحـرب الخليج الثانية ..

فلعل إلقاء الضـوء على بعض الحقائق حـول هذا الموضوع من مـوقع قـريب من الأحـداث يسـاعـد على اسـتـخـلاص الدروس مستقـبلاً.. وتلافى الأخطاء الفادحة التى وقعت فـيها بعض النظم العربية فى حينه .. عندما أيدت الشقيق العراقى فى أخطائه .

أمـا الفصل الأخـيـر .. من هذه المذكرات، فـإنه يتناول مـهمـة كلفتنى بها الأمم المتـحدة للمشاركة فى الإشـراف على الانتخابات فى كمـبوديا .. وقد تحـولت لتصبح أقـرب إلى المغامـرة منها إلى المهمـة الرسميـة .. ذلك أنه بعد قـبولى للمهـمة السلمـية ، تراجع الخمير الحـمر عن اتفاق باريس للسلام الذى أبرمه مـعهم الأمين العام المصـرى للأمم المتحدة د. بطرس بطـرس غالي .. بل وأعلنوا أن الأمم المتـحدة سـتكون من ذلك الوقـت فصـاعـداً أحد الأعـداء الرئيسيين للخمير الحمر .. وبذلك وجدت نفسى فجأة فى مواجهة مع الخمير الحمر ..!!

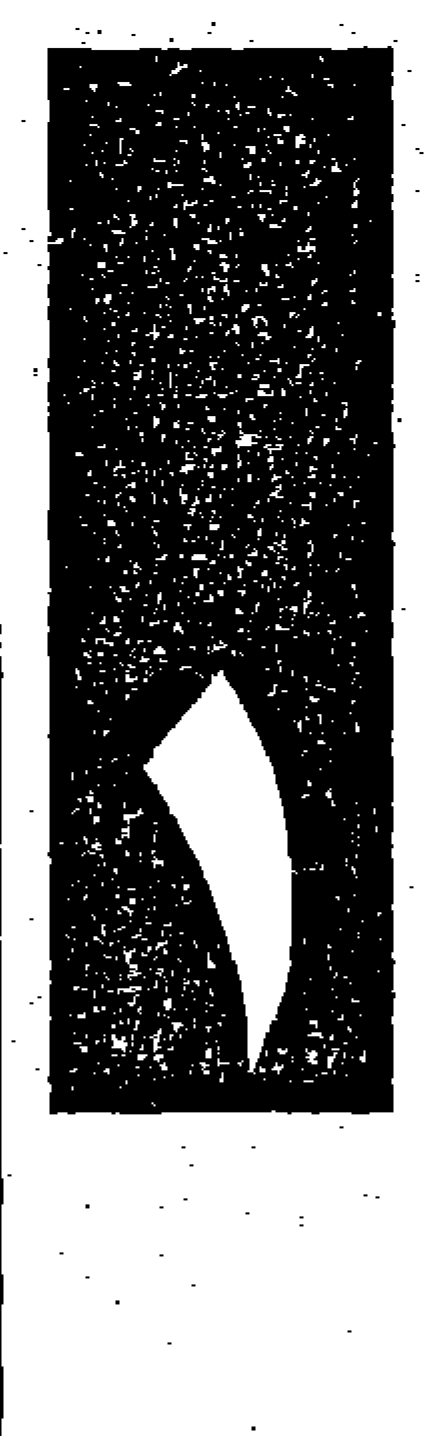
وختامـاً .. فإننى أرجو أن تكون هذه المذكرات ممتـعة للقارىء المصرى والعربى من الأجيال الحالية والقادمة فى كل مكان .. وأن تأخذه إلى آفـاق بعيدة تكون أحيـاناً ترويحية وأخـرى تثقيفـية .. وغيرها سياسية ..

كـمـا أطمـع فى أن تكون زاداً إضـافـيـاً يتـزود به شـبـاب الدبلومـاسيـة المصرية والعـربية .. وهـم شـبـاب أُحـسن اختـياره وإعداده لمهمة عظيمة ..

والله المـوفق ،،

القاهرة فى ٢٠٠٢/١١/١٦

عصام الدين حواس



الدبلوماسية بين الوظيفة والمهنة

من مذكرات سفير سابق

عندما قررت بعد تردد دام شهوراً أن أترك المحاماة .. المهنة التي عملت بها وأحببتها على مدى سبع سنوات منذ تخرجي في كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) في دور مايو ١٩٥٢ .. كان أكبر ما يشجعنى على قبول العمل الدبلوماسى هو إحساسى بأننى لن أنتقل إلى وظيفة التحق بها .. ولكننى سوف انتقل من مهنة الكرامة والدفاع عن الحق والشرف إلى مهنة أخرى مماثلة .. وإن كان نوع القضايا فيها مختلف .. فهى قضايا الوطن السياسية والاقتصادية .. ومجالها مختلف .. فهو العالم على اتساعه ورحابته ..

ومع ذلك فقد كان قرارى الأخير والنهائي والحاسم : « سوف أنضم إلى السلك الدبلوماسى .. ولكن ستكون استقالتى فى جيبى» .. فبعد التجربة ـ طالت أو قصرت ـ إذا لم أجد آمالى فى تلك المهنة الجديدة قد تحققت على النحو الذى أتمناه .. فسوف أخرج تلك الورقة المطوية من جيبى لأتقدم بها تاركاً الخارجية عائداً إلى المحاماة .. ولن يكلفنى ذلك إلا طلباً أتقدم به إلى نقيب المحامين .. لإعادة قيد اسمى فى جدول المحامين المشتغلين نقلاً من جدول المحامين غير المشتغلين ..!

وكان أول تحد واجهنى بعد دخول مبنى وزارة الخارجية أن

أثبت ما آمنت به مسبقاً من أن الدبلوماسية مهنة وليست مجرد وظيفة على النحو الشائع عن الوظيفة الحكومية .

وقد تغاضيت عن الإجراءات الروتينية مثل إقرار استلام العمل بالوزارة .. ثم إقرار استلام العمل بالإدارة التى عينت بها وكانت « إدارة العلاقات الثقافية الدولية » التى كان اسمها يختزل إلى « إدارة الثقافة » .. ثم إقرار الحالة الاجتماعية .. إلى غير ذلك من الإجراءات ..

ولكن صدمتى الأولى كانت عندما استفسرت من المسئولين بإدارة شئون السلك الدبلوماسى والقنصلى عما إذا كان هناك موعد لنا لمقابلة وزير الخارجية (الدكتور محمود فوزى) فابتسم المسئول وطلب منى التوجه إلى الإدارة التى حُددت لى ، فهذا يكفى ..

توجهت على مضض ودلفت إلى مكتب مدير « الإدارة الثقافية» (السفير م . القرمانى) .

وكان لوالدى فى الأربعينات زميل مهندس فى الرى هو المرحوم / محمد أمين القرمانى .. وكانت تربطنا به وبأولاده صداقة عائلية منذ الصغر حيث عشنا زهاء أربع سنوات فى مستعمرة الرى بالقناطر الخيرية .. وكان منهم اللواء / القرمانى محافظ العريش .. ومحمد العشماوى باشا وزير المعارف الأسبق.. واستبشرت خيراً أن أعمل مع أحد رموز هذه العائلة العريقة .

ولكنى فوجئت بالمقابلة المقتضبة مع مدير الإدارة الثقافية .. فما كدت أجلس على المقعد حتى قال لى ـ أنت الملحق الجديد .. قدم نفسك إلى المستشار (ح . و .) نائب مدير الإدارة .. !

فقلت مستدركاً :

– ولكن قد تكون هناك بعض الأمور التى قد أرغب فى عرضها ومناقشتها معك ..

قال بنفس اللهجة المقتضبة :

– المستشار (ح . و .) ..

فاستأذنت وانصرفت على الفور .. وقابلت المستشار (ح . و .) حيث وجدت أمامه أحد موظفى الإدارة يعرض عليه أوراقاً للتوقيع.. وكان المستشار ينظر فى كل ورقة ويكاد يوقعها .. ثم يسحب يده ولا يوقع .. ويعيد قراءة الورقة .. ثم يكرر نفس الشىء أكثر من مرة ثم أخيراً يضع توقيعه عليها ..

ثم التفت إلىّ وطلب لى فنجاناً من القهوة .. وقال لى إن هذه الإدارة من الإدارات غير المعقدة فى عملها وأن الأمر لا يحتاج إلى شرح وسوف ألم بالأعمال المطلوبة منى بعد أيام قليلة .. وكان رجلاً لطيف المعشر .. رقيق الكلام .. مهذباً فى ألفاظه .. ولكنه قال فى النهاية :

– بصراحة نحن إدارة مثل ساعى البريد .. تأتينا المراسلات من الخارج ، فنحولها إلى وزارة المعارف .. وتأتينا المراسلات من وزارة المعارف ، فنحولها إلى الخارج !!

قلت :

– ولكن عندى بعض الأفكار التى يمكن لنا بها نشر الثقافة والمعارف المصرية كدولة عريقة ضاربة فى التاريخ البشرى بحضارة هى الأولى .

قاطعنى مبتسماً :

– لا تتعجل الأمور .. فسوف تكون الفرصة أمامك متسعة ..

وقد علمت بعد ذلك سر هذا الجو الغريب السائد فى تلك الإدارة حيث لم يمض أسبوعان حتى قيل لى إن مدير الإدارة قد وصلته رسالة بالموتوسيكل لإعفائه من منصبه بوزارة

الخارجية..!! وأن ذلك تم فى إطار حملة تطهير شملت عدداً كبيراً من السفراء والوزراء المفوضين فى ديسمبر ١٩٥٨ ..!!

■ ■ ■

وكانت الصدمة التالية بعد أسبوعين عندما دخلت مكتبى .. فقال لى زميلا العزيزان اللذان كنت أشاركهما نفس الغرفة .. أنه قد صدرت تعليمات من السيد النائب (السيد حسين ذو الفقار صبرى شقيق على صبرى الذى كان نائباً لوزير الخارجية) بأن يضع كل موظف على مكتبه ورقة تحمل اسمه وصورة له .. وسوف يمر السيد النائب شخصياً مروراً مفاجئاً على المكاتب بإدارات الوزارة للتفتيش .. وسيتخذ إجراءً حاسماً ضد الموظف الذى لا يجده أو لا يجد على مكتبه اسمه وصورته ..!!

وقلت وأنا أتحسس الاستقالة فى جيبى :

– أولاً : أنا لست موظفاً .. إذا كان هؤلاء من يعنيهم السيد النائب ..

وثانياً : فإننى لن أضع اسمى وصورتى على المكتب ..

قال زملائى : إذا مر السيد النائب، فسنقول له أنك ملحق جديد.. ولم تعرف هذه التعليمات .. ولم تكن جاهزاً بالصورة ..

قلت على الفور :

– عفواً .. بل قولوا له إننى علمت بها وأن اسمى « فلان » الملحق الدبلوماسى بالإدارة وأننى رفضت أن أضع اسمى وصورتى على المكتب وأعتبر ذلك إهانة غير مقبولة ...!

واستطردت قائلاً :

– إننى لا أعرف شكل « السيد النائب » ولا أدرى سر اهتمامه بمعرفة اسمى وصورتى .. وهو لم يكلف نفسه مشقة استقبال زملائه الجدد من الشباب الذين كان يصح أن يكون أول مَنْ يستقبلهم ويتحدث إليهم ويعطيهم من خبرته وتجاربه وتوجيهاته

كنائب لوزير الخارجية ما قد يعينهم فى عملهم الدبلوماسى الجديد ..

وعلى كل حال فقد تلاشت هذه « التعليمات » بالنسبة لى عملياً.. فلا أنا وضعت اسمى وصورتى على مكتبى .. ولا السيد النائب عُنى بالمرور على إدارة العلاقات الثقافية الدولية للتفتيش !!

■ ■ ■

عُين لإدارة العلاقات الثقافية الدولية مدير جديد .. هو السفير حمدى هيبة (ضابط سابق بالجيش) .. واتفق معى فى الرأى على أن هذه الإدارة من الإدارات المهمة التى لا يجب تحجيم مهمتها .. واقترحت عليه أن أعمل مشروعاً تتبناه الإدارة الثقافية.. هو إنشاء جمعيات مصرية للصداقة على مستوى العالم .. فشجعنى وأطلق يدى لإعداد دراسة شاملة للمشروع من جوانبه المختلفة .. وعكفت فى حماس على إعداد تلك الدراسة .. فكنت أنهى الأعمال المطلوبة منى خلال اليوم .. ثم أعود بعد الظهر للعمل على إعداد تلك الدراسة .. وكنت أحياناً ما أسهر بمكتبى إلى ما بعد منتصف الليل متأسياً بمهنة المحاماة التى لم تكن تعرف ساعات محددة للعمل .. حتى أن أهلى كانوا يسألون زوجتى عما إذا كنت قد عدت للمحاماة مرة أخرى .. لأن هذا الذى أقوم به ليس من عادة الموظفين !!؟ وكانت زوجتى ترد عليهم نيابة عنى فى زهو .. ومَنْ قال إن زوجى موظف ..؟ إنه ملحق دبلوماسى ..!

وقد أتممت الدراسة المفصلة التى أوضحت فيها أن ما تنفقه الدولة لإقامة مسجد واحد أو مدرسة صغيرة فى دولة أفريقية واحدة يكفى لدعم إقامة جمعيات صداقة على مستوى العالم .. لأن كل المطلوب هنا هو الدعم والدفعة الأولى للأمام .. ثم يتولى أعضاء الجمعية الإنفاق على أنشطتها ..

كما أن جمعية الصداقة تتميز عن المكتب الثقافى بأن القائم

بالنشاط فى حالة جمعية الصداقة هو الأصدقاء من المواطنين فى الدولة الأخرى .. وهذا النوع من النشاط يأخذ طابعاً آخر أكثر تأثيراً طبقاً للمثل القائل :

« وشهد شاهد من أهلها ..!! »

وحظى المشروع على موافقة مدير العلاقات الثقافية الدولية .. وقدمه لرئاسة الوزارة مزهواً به .. فلم تعد الإدارة الثقافية مجرد ساعى بريد .. وإنما بدأت الإدارة تأخذ وضعها الحقيقى والمهم بين إدارات الوزارة ..

■ ■ ■

ولكن .. عندما هلّ شهر يناير من عام ١٩٥٩ .. واجهتنى الصدمة الثالثة حين وزع على أعضاء الوزارة ورقة بعنوان «إقرار الحالة الاجتماعية » كان مطلوباً أن يملأها ويوقع عليها كل عضو دبلوماسى فى الوزارة ..

وعندما ملأت البيانات المطلوبة : اسمى وتاريخ ميلادى وجهة الميلاد واسم زوجتى وبياناتها .. واسم ابنتى الكبرى (هالة) وبياناتها .. لفت نظرى أن هناك فقرة من عشرة سطور ذيلت بها الاستمارة وأن علىّ أن أوقع تحت هذه الفقرة ..

وكمحام .. بدأت فى قراءة الفقرة .. فإذا بها تبدأ بعبارة لا بأس منها وإن كانت غير لازمة تقول إننى أقر بصحة البيانات المدونة بالاستمارة وأتعهد بالإبلاغ عن أى تغيير يطرأ عليها ..

ولكن بالاستطراد فى القراءة توقفت عند السطور التالية وبدأ ينتابنى شعور غريب بالمهانة .. إذا كانت العبارة التالية تقول فى أربعة سطور :

« وإذا اتضح كذب البيانات المدونة فى هذا الإقرار أو عدم صحتها، فإننى أكون مسئولاً قانوناً ويمكن للوزارة أن تتخذ ضدى كافة الإجراءات المدنية والجنائية ويكون من حقها استرداد

المبالغ التى أكون قد صرفتها بغير وجه حق !! » .

وهذه العبارة تزيد وقح لا معنى له .. لأن توقيعى على صحة البيانات يغنى قانوناً عن كل العبارات المهينة التى اشتمل عليها الإقرار ..

وأتى الموظف الذى وزع الورقة .. يجمعها .. وحثنى على توقيع الورقة حيث يجب تسليمها لإعداد المرتبات وأبدى دهشته لأننى ملأت كل البيانات، فلماذا لم أوقعها وأننى إذا لم أوقعها فلن يدرج اسمي فى كشف المرتبات طوال عام ١٩٥٩ ..!! قلت له إن لى تحفظاً على العبارات الواردة بالإقرار .. فضحك ملء شدقيه قائلاً : ده روتين يابيه .. وقع .. كباقى الموظفين ..!!

قلت بصوت خافت حتى لا أجرحه هو وكأننى أحدث نفسى .. وهل أنا موظف كباقى الموظفين ..؟

واستطردت قائلاً للموظف :

– إننى سأوقع الورقة ولكن بعد شطب السطور الأربعة الأخيرة من الإقرار .. ونظر إلىّ فى ذهول .. ثم قال :

– هذا غير قانونى ..؟!

قلت :

– دع القانون لى ..

قال :

– ستعترض الإدارة المالية .. ولن يصرفوا مرتبك ..

قلت :

– إذا اعترضت الإدارة المالية ، فسيكون لى معها شأن آخر .

وبالفعل شطبت على السطور الأربعة ووقعت الإقرار ..

ومر شهر يناير وقبضت مرتبى كالمعتاد .. ثم فبراير وما تلاهما من شهور حتى نهاية عام ١٩٥٩ وأتى يناير ١٩٦٠ وكنت قد نُقلت إلى وارسو عاصمة بولندا .. وأتانا إقرار الحالة

الاجتماعية بنفس عباراته السخيفة ووقع عليه كل أعضاء السّفارة بمَنْ فيهم السفير .. أما أنا فشطبت على السطور الأربعة منه ووقعته .. ولم يحدث شيء فى عام ١٩٦٠ واستمر مرتبى يصلنى كباقى الناس .. وتكرر نفس الشيء فى عام ٦١ وما تلاه من أعوام على مدى ثلاثين عاماً حتى يناير ١٩٩٢ (آخر يناير قبل أن أحال إلى المعاش) وفى كل يناير من كل عام كنت أوقع الإقرار بعد شطب السطور الأربعة الأخيرة منه .. ولم يحدث شيء غير عادى .. فلا الإقرار ارتد لى .. ولا المرتب توقف صرفه ..!!

■ ■ ■

وقد تكرر التأكيد على نظرتى إلى عمل الدبلوماسى كمهنة وليس كوظيفة تقليدية .. فى مناسبات عديدة أكثر أهمية بعد ذلك وفى مختلف مواقع العمل التى أسندت إلىّ ..

ففى بولندا .. حيث نقلت إلى عاصمتها وارسو فى يوليو ١٩٥٩ .. كان من حظى أن أصل إلى مقر عملى الجديد يوم ٢٢ يوليو .. وفى اليوم التالى كانت السفارة تقيم حفل ذكرى ثورة يوليو ١٩٥٢ ويقيمه الملحق العسكرى المصرى حيث إن العيد الوطنى قد تغير ليصبح ٢٢ فبراير من كل عام .. ذكرى إنشاء الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها الشمالى (سوريا) والجنوبى (مصر) فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨ ..

وكان الحفل بالنسبة لى بمثابة حفل تقديم لى (باعتبارى الملحق الدبلوماسى الجديد بالسفارة) إلى السلك الدبلوماسى الأجنبى فى بولندا .. وإلى الشخصيات البولندية الرسمية وغير الرسمية التى دُعيت للحفل .. وكانت السفارة المصرية تستأجر مقراً لها طابقاً كاملاً (الأول) فى إحدى العمارات الحديثة المكونة من أربعة طوابق ممتدة أفقياً بمساحة كبيرة وكان الطابق مكوناً من سبع شقق خصصت ثلاث منها لسكن السفير وأربع للمكاتب

لا يفصلها سوى طرقة صغيرة ..

كما كان البدروم يتبع السفارة وبالمساحة الكاملة أسفل الشقق السبع ويحتوى على بعض الغرف الخاوية وباقى المساحة تجرى فى سقفها مواسير المياه الساخنة والباردة وبعض التجهيزات كما كان مستخدماً من السفارة للاحتفاظ ببعض المكاتب والأثاث المستهلك ..

كانت بولندا فى تلك الفترة لا تزال تعيش أجواء الحرب الباردة.. وكانت تقع فى منطقة « الستار الحديدى » التى فرضها ستالين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .. ولا تزال منعدمة الصلة بالعالم الخارجى .. وكان « النادى الأمريكى » يقدم فيلماً أمريكياً كل يوم ويعمل عشاء خفيفاً ولعبة « البنجو » كل أسبوع .. والنادى البريطانى « يعمل عشاء خفيفاً تصحبه لعبة « تومبولا ».. كل أسبوع .. ويقدمان جوائز مثل : الراديوهات الصغيرة والخلاطات وبعض الأدوات المنزلية ..

وكان كل أعضاء السلك يلتقون فى الناديين مساء كل يوم تقريباً . حيث كانا من الأماكن الوحيدة التى يمكن لأعضاء السلك الالتقاء بها بشكل غير رسمى وكان ذلك يشمل الدول التى لا تقيم علاقات دبلوماسية رسمية مع كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا بما فى ذلك أعضاء سفارة الجمهورية العربية المتحدة حيث كانت العلاقات مقطوعة بعد حرب ١٩٥٦ مع بريطانيا ثم بعد ذلك مع أمريكا .. وكانت تلك تعتبر فرصة لتبادل الآراء بشكل غير رسمى فى بعض الموضوعات السياسية محل الخلافات ..

وقد خطرت لى فكرة .. لماذا لا ننشىء نادياً عربياً أسفل مبنى سفارة الجمهورية العربية المتحدة .. وتقام فيه مباريات لتنس الطاولة بين أعضاء البعثات الدبلوماسية لخلق تجمع ولقاءات اجتماعية بين أعضاء السلك فى مكان ثالث خلاف الناديين

الأمريكي والبريطاني .. ويكون كذلك مركزاً لاجتذاب أبناء الجاليات العربية في بولندا وهم عديدون .. وعرضت الفكرة على السفير فوافق عليها ولكن بغير تحميل الدولة أعباء مالية .. وتبرع من جيبه الخاص بأول دفعة مالية مساهمة منه في المشروع .. كما تبرع كل من أعضاء السفارة بمبلغ من جيبه الخاص للغرض نفسه .. وكانت العقبة أمامي هي عقبة الموظف المالي والإداري بالسفارة حيث أصر على عدم تحريك الأثاث والمكاتب المستهلكة من أماكنها في البدروم لأنها عهدة لديه ولا يمكن التخلص منها إلا بتكهينها وهذا لابد له من إجراءات عديدة من تشكيل لجنة للجرد وملء استمارات وإعداد تقرير وإرساله للوزارة التي قد توافق على التكهين أو لا توافق ، فإذا ما وافقت فيتعين تشكيل لجنة لاتخاذ إجراءات التكهين وملء استمارات وعمل مزاد علني .. إلخ.. إلخ ..

وقلت للموظف الإداري :

– أنا لا أريد المساس بعهدتك .. وأمامك ٢٤ ساعة لجمعها في غرفة من الغرف الخاوية ويمكنك إغلاقها بثلاثة أقفال .. ثم جردها وتكهينها كما تشاء وبالإجراءات التي تراها ..

وقمنا بالجهود الذاتية بتنظيف البدروم .. ودهان حوائطه بالزيت وأما مواسيره فقد تم دهانها بالألوان وعملنا فتحات مستديرة وباللون الأبيض ورسمنا على الحوائط حبالاً وأطواق النجاة كما رسمنا صوراً لوجوه البحارين وملابسهم البيضاء بالخطوط الزرقاء وشواربهم ولحاهم الكثيفة بحيث أصبح البدروم وكأنه جزء من سفينة كبيرة .. تمخر عباب اليم .. ووضعنا طاولة خشبية لتنس الطاولة .. وجهاز كاسيت للموسيقى الخفيفة ..

ثم أعلنا في نشرة دورية لأعضاء السفارات الأجنبية في

وارسو وعائلاتهم عن مسابقة تنس الطاولة التى ينظمها نادى الجمهورية العربية المتحدة تحت رعاية السفير المصرى وحرمه والجوائز القيمة التى ستقدم للفائزين .. وكانت المسابقة التى استمرت ثلاثة أسابيع ناجحة بذاتها .. وناجحة فى التعريف بالنادى العربى والإقبال عليه .. وكان أقرب الناس إلينا من غير العرب هم أعضاء سفارات تركيا وإيران واليونان حيث كانوا يطربون لسماع صوت أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب قادماً من ضفاف نهر النيل الخالد .. ليصدح على ضفاف نهر الفستيولا الذى يطلقون عليه باللغة البولندية « الفيسوا » ..

وقد استمر ذلك النادى العربى فى الوجود إلى أن وقع الانفصال الحزين بين مصر وسوريا فى سبتمبر ١٩٦١ .. وكنت فى عطلة فى سويسرا ضمن جولة سياحية أوروبية خاصة .. ولم يكن المناخ السياسى والنفسى لنا يسمح بمواصلة ذلك النشاط .. فأُغلق النادى ولا أظن أنه فُتح بعد ذلك أبداً ..

■ ■ ■

وفى بولندا أيضاً .. وبعد أن أمضيت عاماً ونصف العام صدر قرار من القاهرة بأن يتولى الملحق الدبلوماسى فى كل سفارة الأعمال المالية والإدارية .. وأن يلغى نظام أمناء المحفوظات الذين كانوا يقومون بتلك الأعمال فيما عدا سفاراتنا فى الدول الكبرى ..

وعلى ذلك تقرر نقل أمين المحفوظات بالسفارة المصرية فى بولندا إلى موسكو وتقرر أن أتولى أنا الشئون المالية والإدارية ..

فطلبت من السفير طلباً تمسكت به .. وهو أن تظل معى إلى جانب الشئون الإدارية المالية اختصاصاتى الأخرى وتشمل التقارير السياسية والأعمال القنصلية والإعلامية .. موضحاً أن هذه هى مهنتى الأساسية وسوف أعتبر الشئون المالية والإدارية كعمل إضافى مضاف إلى عملى الأصلى .. وقد أشفق السفير على

من ذلك ولكنه قدره واحترمه .. مؤكداً أن من حقى فى أى وقت أن أطلب إعفائى من بعض الاختصاصات الأخرى .. وهو ما لم يحدث لأننى كنت أنجز ما يكون علىّ إنجازه من عمل بالسفارة ثم أصطحب إلى البيت ما يكون مطلوباً إنجازه من عمل مالى أو إدارى أو كتابى وأسهر على إنجازه وأحياناً إلى ساعات مبكرة من الصباح ..

وكنت فى الوقت نفسه أتابع عن طريق الراديو والمسجل ما يكون مذاعاً من خطب سياسية فى بعض المناسبات المهمة للرئيس جمال عبد الناصر .. وكانت وسائل الاتصالات وقتها بطيئة .. ويستغرق وصول نص الخطاب للسفارة عدة أيام حسب موعد البريد السياسى .. أو فى أحسن الظروف ٤٨ ساعة إذا ما أُرسلت بالبرق ..

ولكنى كنت ببساطة أسجل الخطاب أثناء إذاعته ثم أفرغ التسجيلات على الورق لأسلمه فى اليوم التالى لمترجمة السفارة التى تقوم بترجمته إلى اللغة الفرنسية وإرساله إلى الصحف الرئيسية والإذاعة والتليفزيون ووزارة الخارجية والبعثات الدبلوماسية .. مع تحيات سفارة الجمهورية العربية المتحدة - المكتب الإعلامى .. وكان زملائى بالسفارات الأخرى يعتقدون أن لدينا إمكانات ضخمة تسمح لنا بتوزيع خطاب الرئيس المصرى فى اليوم التالى لإلقائه مترجماً .. ! ولم أشأ أن أنفى هذا الاعتقاد.. فلقد كانت مصر دائماً كبيرة بإمكاناتها البشرية ..

وهكذا ظللت على مدى عام كامل أؤدى واجباتى الأصلية والمضافة على أفضل ما يمكننى .. إلى أن عدلت الوزارة عن ذلك النظام وبعثت إلينا بموظف إدارى ليتفرغ للعمل المالى والإدارى .. وكان عليه أن يتسلم العمل منى بمحضر تسليم وتسلم .. وتلك قصة أخرى ..! لن أحكيها فى هذه المذكرات لأنها قد تحتاج إلى

كتاب مستقل .. وقد سبق أن كتبت بتوسع عن موضوع الجهاز الإدارى والبيروقراطية وسائر السلبيات فى مجتمعنا المصرى فى كتاب بعنوان « ثورة الأخلاق » صدر فى مارس عام ١٩٦٧ قبل النكسة وكان يتحدث سلفاً عن الأسباب التى أدت إلى هزيمة يونيو ١٩٦٧ وهو كتاب يحتاج فقط إلى إعادة الطبع مع قليل من التحديث .. لأن معظم ما ورد به يعتبر صالحاً للنشر وسارياً حتى يومنا هذا فى عام ٢٠٠٢ ..!

■ ■ ■

وفى فنلندا .. وبعد تسلمى العمل بها نقلاً من بولندا فى يوليو ١٩٦٣ كان أول ما صادفنى فى اليوم التالى لوصولى مشكلة لشاب مصرى ـ هو المواطن المصرى الوحيد فى فنلندا ـ له ابن من زوجة فنلندية بلغ من العمر ثلاثة أعوام .. ولم يتمكن من استخراج شهادة ميلاد مصرية له .. ! ـ ووجدت بالسفارة ملفاً كبيراً له يحتوى على العديد من المراسلات البطيئة المتبادلة بين السفارة وبين وزارة الداخلية والأحوال المدنية عبر وزارة الخارجية ..

وكان آخر خطاب مرسل من السفارة يرجع تاريخه إلى عدة شهور مضت .. ولم يصل رد عليه ..

وقد أخذت الملف إلى بيتى وسهرت على قراءته .. واقتنعت بأن كل المراسلات المتبادلة لن يكون لها طائل وأنها تدور فى حلقة مفرغة لا نهاية لها .. فاتخذت قراراً مسبباً بحكم صلاحياتى القنصلية يقضى بما يلى :

١ - إصدار شهادة ميلاد مصرية للطفل لاستحقاقه لها قانوناً.

٢ - إغلاق الملف وبه المذكرة التى تضمنت ذلك القرار .

وسيجد القارىء تفصيلات هذه القصة المعبرة فى فصل «حكايات قنصلية » ضمن فصول هذا الكتاب وسيجد أنها مثال

واضح آخر على ممارسة الدبلوماسية كمهنة وليس كوظيفة حكومية تقليدية ..!

■ ■ ■

وفى ماليزيا .. عام ١٩٦٨ ـ فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر .. تلقت السفارة دعوة من تنكو عبد الرحمن رئيس وزراء ماليزيا لحضور المؤتمر الإسلامى الأول فى كوالالمبور فى مارس ١٩٦٩ على المستوى الوزارى .. وكانت السياسة المصرية وقتها تتسم بالحساسية الشديدة تجاه المؤتمرات الإسلامية التى كانت تدعو إليها عادة رابطة العالم الإسلامى فى السعودية وتستخدم ضد مصر وسياسة الرئيس عبد الناصر .. وأحال السفير هذا الموضوع إلىّ بحكم اختصاصى فى السفارة بالأعمال الثقافية والإعلامية ..! ووضعت تقريراً ـ ضد التيار ـ أوصيت فى نهايته بضرورة استجابة مصر للدعوة وتمثيل مصر بوفد قوى سيصحح الأوضاع لأن مصر بثقلها الإسلامى ستتمكن من قيادة العمل بالمؤتمرات الإسلامية ..

وعلمت فيما بعد من الدكتور عصمت عبد المجيد أن الرئاسة طلبت منه وقتها ـ وكان مديراً للعلاقات الثقافية الدولية ـ إعداد تقرير عن المؤتمر فرد عليهم بأن لديهم تقريراً كاملاً أعده عصام الدين حواس وأنه يؤيد ما انتهى إليه ذلك التقرير ..

وقد عُرض هذا التقرير على الرئيس عبد الناصر فوافق عليه بالفعل .. وتشكل وفد مصر برئاسة الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية .. وحقق المؤتمر نجاحاً كبيراً بفضل مشاركة مصر .. وكان ذلك تحولاً تاريخياً مهماً فى موقف مصر الاستراتيجى وتطور ذلك إلى عقد مؤتمر القمة الإسلامية الأول فى المغرب فى نوفمبر ١٩٦٩ عقب حريق المسجد الأقصى .. وإنشاء منظمة المؤتمر الإسلامى القائمة حتى اليوم ..

وسـوف أعود فى فـصل لاحق إلى تفـصيل ذلك الحـدث المهم الذى شاركت فيـه قمم مصرية شامخـة .. وهى تفاصيل لا تخلو كـذلك من قـصص طريفـة .. وكلهـا تحـمل إجـابتى عن السـؤال نفسه : الدبلوماسية .. مهنة .. أم وظيفة ..؟!

وفى مـاليزيا أيضـاً .. فى عـام ١٩٦٨ .. كانت هـناك عشـر عائلات لأطباء مصريين يعـملون فى ماليزيا .. ثم قدمت ٤٠ عائلة أخرى لأطباء مصـريين جدد للعمل فى ماليزيا بولاياتهـا المتفرقة الثلاث عشرة .. وأضيف إليهم أربع عـائلات لشيوخ مبعوثين من الأزهر إلى جـانب اثنين كـانوا موجـودين من قـبل وتفرقـوا فى ولايات ماليـزيا .. وكان هناك إلى جانب هؤلاء أربعة من الخـبراء المصـريين وعائلاتهم يعـملون فى مـشروعـات الأمم المتحـدة فى كوالالمبور .

وقد وجدت من الواجب الربط بين هؤلاء فـيما بينهم .. والربط بينهم وبين الوطن ، فـأنشـأت رابطة للجاليـة العربية فى مـاليزيا ضـمت كل هؤلاء من مـصـر بالإضـافـة إلى أعـضـاء سـفـارة الجمهورية العربية المتحدة ..

وعلى الرغم من أن العلاقات المصرية ـ السعودية لم تكن وقتها على ما يرام ، فقد رأيت ضم أعضاء السفارة السعودية كمواطنين عرب إلى الرابـطة العربية بالإضـافة إلى خـبير يمنـى واحد تابع للأمم المتحـدة .. وبذلك قامت رابطة الجـالية العـربية فى مـاليزيا قوامها سـتون أسرة من حوالى ٢٥٠ فرداً .. ونصبت السـفيرين المصرى والسعـودى كرئيسـين فخريين للجـالية يتناوبان الرئاسة كل ستة أشـهر ..

وشكلنا مـجلساً لإدارة الرابطة يرأسـه الأمين العام المـنتخب ، وكـان من حظى أن أنتـخب لهـذا المنصب .. كمـا شكلنا مـجلسـاً

للجالية أُنتخب له مستشار السفارة (السفير فيما بعد المرحوم توفيق سليمان أباظة) ..

وأصدرت الرابطة مجلة شهرية استمرت بانتظام لمدة أربع سنوات .. وكانت المجلة التى يحررها قراؤها ..!

وكان ذلك كله يتم بغير تعليمات من الوزارة .. وكان هناك مَنْ يعمل ضد الفكرة فى الخفاء ويحرض السفير ضدها وأنها تعرضه لمناقضة إدارية ومالية من الوزارة ..!! وكنت مهدداً بأن تصلنى أو تصل للسفير تعليمات فى أى وقت بوقف هذا النشاط .. ولكن استقالتى كانت جاهزة فى جيبى رغم مرور أكثر من عشر سنوات على عملى الدبلوماسى ..!

ولكن الذى أنقذ الموقف أن المستشار عز الدين شرف (وهو شقيق سامى شرف) حضر إلى ماليزيا كحامل للحقيبة الدبلوماسية .. وذكر لى عندما استقبلته بالمطار .. إن الوزير محمود رياض فى آخر اجتماع له مع مديرى الإدارات كان يمسك بيده بالمجلة التى تصدرها رابطة الجالية العربية بماليزيا ويقول : هكذا يجب أن يكون أسلوب العمل فى جميع سفاراتنا بالعالم ..! فقلت له على الفور : لا تقل لى هذا الكلام .. وإنما قله للسفير عندما تلتقى به فى الصباح بمكتبه !!

وقد فهم عز الدين ما أعنيه وفعل ذلك عندما قابله السفير الذى بدأ بعد سماعه رأى محمود رياض يشرح له الفلسفة وراء إنشاء رابطة للجالية العربية فى ماليزيا وإصدار مجلة الرابطة ..!! ومن هنا بدأ السفير بعد ذلك يتشجع ويساند هذا العمل بكل قوة ..!

وقبل أن أترك ماليزيا بعام .. وحتى يستمر ذلك النشاط البنَّاء أنشأنا جمعية للصداقة الماليزية ـ المصرية .. وجعلنا على رأسها تون عبد الرزاق حسين رئيس وزراء ماليزيا آنذاك ..

وفى أول اجتماع رأسه تون عبد الرزاق أعلن عن تأييد ماليزيا

للجمـهورية العـربية المتحـدة فى المشروعـات المقدمـة إلى مجلس الأمن بشأن الشرق الأوسط .. وكـان ذلك تغييراً استراتيـجياً فى سياسـة ماليزيا حيث كانت قبل ذلك تتخذ موقفاً محايداً ..!

وفى ماليـزيا أيضاً .. عام ١٩٦٩ شاركنا بجناح مصرى فى مهـرجان بجامـعة كوالالمبـور .. أقمناه بالجـهود الذاتية للسـفارة وأبناء الجالية .. بغـير أى معونة رسميـة من القاهرة .. وشاركت فيه المرأة المصرية بجهدها فى التنسيق والحضور .. وفاز الجناح المصرى بـالمرتبة الأولى رغم مـشاركـة دول كبرى مـثل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفيتى بأجنحة وضعت لها إمكانيات كبيرة ..!!

وفى ماليـزيا أيضاً .. فى مايو ١٩٧١ أقـمت معرضـاً فردياً للرسم .. لم يخل من لوحـات سـياسـية أثارت أزمـة مع الولايات المتحـدة التى كانت متـورطة فى فيتنام ..! وتحـدثت الصحف عن الدبلومـاسى الفنان الذى يعـبر عن المواقف السـياسـية بالريشـة والألوان ..!!

وفى ماليزيا .. أنشأت نادياً فكرياً للسلك الدبلوماسى الأجنبى انتخبت لرئاسته، فكان ذلك شـرفاً وتكريماً لمصر قبل أن يكون لى شخصيـا كصاحب للفكرة .. وكنا ندعو الوزراء وكبـار المسئولين بالحكومة وزعماء المعارضـة لطرح أفكارهم بحرية وبلا قيود على أعـضاء السلك من خـلال غـذاء شهـرى .. ومرة أخـرى أثار هذا النشاط أزمة حيث احتـجت الولايات المتحدة على بعض ما قيل فى هذه الاجتـماعات .. ولكن الحكومـة الماليزية ردت بأن هذه أنشطة خاصـة للدبلوماسـيين ويمكنهم أن يعبـروا فيـها عن آرائهم وأن يستـمعوا إلى آراء ضيـوفهم بحرية كامـلة ولا يمكن للحكومة أن تتدخل فى ذلك .. !!

وفى الكويت عـام ١٩٧٥ .. توليت ـ ولأول مـرة فى حيـاتى

الدبلوماسية ـ رئاسة القسم القنصلى بسفارة مصر بالكويت .. وكان أحد شروطى الأساسية لقبول تلك المهمة هى أن أتصرف كقنصل عام وفقاً لما أراه فى موقعى من ظروف كل حالة .. وألا أتقيد بحرفية اللوائح والتعليمات القنصلية .. لأننى لست موظفاً فى القنصلية ولكننى أباشر تلك المهمة كرجل قانونى ودبلوماسى ..

وقد وافق السفير عزب العرب أمين ـ وكان قانونياً ـ على ذلك.. ونفذت بالفعل طوال مباشرتى للمهام القنصلية هذا المبدأ .. على نحو ما سيظهر تفصيلاً فى فصل « حكايات قنصلية » ضمن فصول هذه المذكرات ..

وفى فيينا .. عام ١٩٨١ .. وعندما سمعت مساء ذات يوم ـ فى أخبار الواحدة والنصف صباحاً بالإذاعة ـ عن ضرب المفاعل النووى العراقى .. فقد اتصلت بالسفير الدكتور أحمد عثمان فى بيته واتفقت معه على إثارة الموضوع فى مجلس المحافظين بالوكالة الدولية للطاقة النووية ..! وتصادف أن كان السفير الدكتور عثمان يرأس المجلس (لغياب رئيسه الكندى) ..

كما تصادف أن كان المجلس يبدأ دورته ربع السنوية فى اليوم التالى .. وهكذا كان رئيس المجلس فى هذه الصورة مصرياً .. وكنت أنا أجلس فى مقعد مصر رئيساً للوفد المصرى .. وعلى الرغم من أن العلاقات مع الدول العربية كانت مقطوعة نتيجة مؤتمر بغداد .. إلا أننا قمنا بمعركة شرسة انتهت باستصدار أول وآخر قرار على المستوى الدولى لا يكتفى فقط بإدانة إسرائيل .. وإنما يوقع عليها عقوبة الحرمان من برنامج التعاون النووى مع وكالة الطاقة النووية ..!

وفى قطر .. حيث تسلمت عملى فى أول يناير ١٩٨٨ كأول سفير لمصر بعد عودة العلاقات العربية مع مصر .. وكانت

الانتفاضة الفلسطينية الأولى لأطفال الحجارة فى مهدها .. ولم تحدد أى دولة عربية موقفها منها بعد ولا وصلت لنا بعد تعليمات من الوزارة تحدد موقفنا الرسمى .. طلبت إلى زوجتى أن تدعو سيدات الجالية المصرية ليشاركن فى إقامة سوق خيرى لدعم أبناء الانتفاضة ومساعدة أسر الضحايا منهم ..

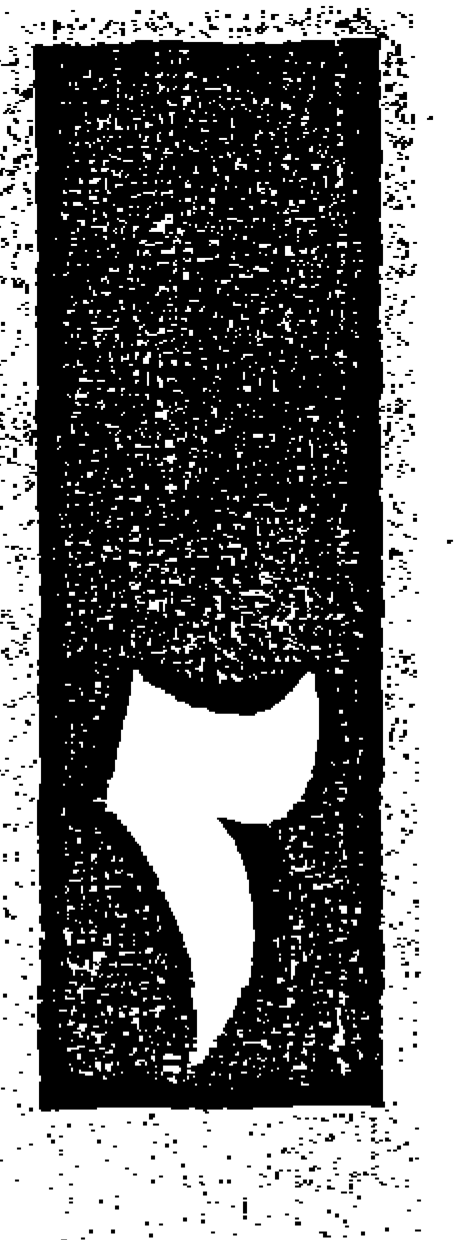
وهكذا .. وبغير اتخاذ موقف رسمى .. أيدت الجالية المصرية الانتفاضة .. وساهمت بشخصى كفنان بثلاث لوحات من رسمى للعرض بالسوق الخيرى إحداها تصور أطفال الحجارة فى مواجهة الرصاص الإسرائيلى .. والثانية لفلاح مصرى والثالثة لفلاحة مصرية .. وكتب تحتهما « حمدان وبهية يؤيدان الانتفاضة الفلسطينية » ..! وأقيم مزاد عام لبيع اللوحات أداره الفنان نور الشريف وزوجته بوسى اللذان حضرا افتتاح السوق .. وحول ناتج مبيعات السوق بأكمله لصالح أطفال الحجارة ..

وفى قطر أيضاً .. فى أغسطس ١٩٩٠ ـ عندما اجتاح العراق الكويت وبدأ فى الزحف على السعودية وأصبحت عواصم الخليج تتلقى تهديدات من صدام حسين بالضرب بالغازات السامة .. فقد بدأت السفارات المصرية فى بعض الدول الخليجية فى ترحيل الجاليات المصرية هناك .. ولكننى ـ ولم أكن قد تلقيت من الوزارة تعليمات محددة بعد ـ عقدت اجتماعاً مع أعضاء الجالية حضره أكثر من ألف مواطن ومواطنة من المصريين العاملين فى قطر .. وناقشت الموضوع معهم موضحاً أن الجالية المصرية فى قطر تشكل شريحة مهمة فى المجتمع القطرى .. وأن علينا أن نكون مع الشعب القطرى فى السراء والضراء .. وأن مَنْ يرغب فى السفر .. فهو حر فى ذلك .. ولكنه إذا فقد عمله فى قطر .. فلن نكون مسئولين عن إعادته إليه .. وأننى شخصياً وأفراد أسرتى موجودون فى الدوحة ولن نغادرها مهما حدث ..

وقد وجدت حماساً من أبناء الجالية لعدم الترحيل .. وللبقاء مع الشعب القطرى .. وذهب الحماس إلى حد مطالبة السفارة بفتح سجل للتطوع لأبناء الجالية المصرية لتحرير الكويت !! وقد وافقت على الفور على ذلك .. وبعثت إلى الوزارة بما اتخذته من إجراءات فرحبت بها وبعثت بتعليمات إلى سفاراتنا فى باقى دول المنطقة لتفعل مثل ذلك ..!

كل ما تقدم .. هو مجرد قليل من كثير من الأمثلة على نظرتى إلى الدبلوماسية كمهنة وليس كوظيفة حكومية تقليدية ..

ولأحافظ على هذه النظرة .. فقد ظلت الاستقالة فى جيبى حتى آخر يوم عمل لى بوزارة الخارجية فى الثانى والعشرين من يناير ١٩٩٢ .. حيث تركت الوزارة لبلوغ سن التقاعد القانونية .. ولأعود إلى مهنتى الأصلية المفضلة .. وهى المحاماة ..!



حكايات دبلوماسية

من مذكرات سفير سابق

بولنــدا ..

١ - وتفرقت المظاهرة المعادية لنا فى وارسو ..!

كان أول منصب دبلومـاسى لى فى الخارج .. أن عينت ملحـقاً سياسياً فى وارسو عاصمة بولندا فى يوليو ١٩٥٩ .. وكانت آثار ستالين مازالت هناك .. وعلى قدر ما كان الزعيم السوفيتى نيكيتا خروشوف له شعبية كبيرة فى العالم الخارجى وبالذات فى غرب أوروبا وأمريكا والدول النـامية .. فقـد كان رمزاً لـدى البولنديين على التسلط السوفيتى على دول المعسكر الاشتراكى ..

وفى الحقيقة أننى - بعـد أن قضيت ما يزيد على أربع سنوات فى وارسو - اكتشفت أننى لم أقابل شيوعياً واحداً فى بولندا ..!!

كل من قابلتهم من الشيوعيين البولنديين كانوا أعضاء السفارة البـولندية فى القـاهرة الذين زرتهم قـبل أن أسافـر إلى منصـبى الجديد ..!

وكان لدى الشعب البولندى دائماً الشـجاعة ليرفض ما يفرض عليه .. وإن كان يقبله ظاهرياً مكرهاً .. وكان يتحين مناسبة يتمكن فيها من الرفض ليظهر رفضه ..

وقد سمعت قصصاً كـثيرة عن أيام الاحتلال الألمانى لبولندا ..

عندما كان بيع الخبز في غير الأماكن المخصص لذلك .. ومن غير الأشخاص المخولة بذلك .. جريمة عقوبتها الإعدام .. ومع ذلك كان البولنديون يحملون مشنات الخضر وتحتها يخفون الخبز ليبيعونه سراً .. !

وأذكر أن أول مناسبة عامة حضرتها كانت فى اليوم التالى لوصولى إلى بولندا وهو حفل يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٩ ذكرى مرور ٧ سنوات على الثورة المصرية ..

وفى هذا الحفل التقيت بشاب بولندى يدعى يرجى جيبدرويش، أصبح بعد ذلك صديقاً لى طوال السنوات الأربع التى قضيتها فى بولندا .. وكان زميلاً فى التنس أيضاً غالباً ما يخسر مبارياته أمامى ولكن بروح رياضية عالية ..! وقدمت له سيجارة مصرية فأخذها بلهفة وأخرج من جيبه علبة كبريت بولندية وأشعل ثقاباً فانطفأ .. أتبعه بآخر فانطفأ بدوره .. ثم توالت العملية ثقاب بعد آخر وكلها لا تشتعل .. ! وحاولت إخراج قداحتى لإشعالها حرصاً على عدم إحراجه ، ولكنه اعترض قائلاً وهو يضحك : لا تتعجل فإن لدينا مقولة محترمة فى بولندا مؤداها : إن كل علبة ثقاب لابد أن فيها عوداً سيشتعل .. !!

وهكذا كانوا يسخرون بأنفسهم من أنفسهم ..

وأذكر من بين النكات التى رواها البولنديون لنا .. أنه بعد إطلاق سفينة فضاء تحمل الكلبة « لايكا » فى أواخر الخمسينات.. فكر العلماء فى إرسال إنسان إلى الفضاء .. فتقرر إرسال أول سفينة فضاء تحمل ثلاثة رجال هم : « جومولكا » السكرتير الأول للحزب الشيوعى البولندى .. و « سيرانكيفيتش » رئيس وزراء بولندا .. ثم « خروشتشوف » الزعيم السوفيتى شخصياً ..!! ولكل من الثلاثة سبب وجيه ساخر لاختياره .

فأما « جومولكا » فلأنه بعد أن كان زعيماً مناضلاً ضد عصر

ستالين وأفرج عنه من الاعتـقال عام ١٩٥٦ أصبح منذ ذلك الحين يجيد الانحناء وبالتالى لم تعد لديه مشكلة فى دخول السفينة ..!

وأمـا « سيـرانكيفـيتش » فـلأنه كـان رئيس وزراء بولندا فى عصر ستالين ثم استمر رئيساً للوزراء فى عصر ما بعد ستالين.. فلديه إذن المقدرة الفائقة على العيش فى كل الأجواء ..!

أما « خـروشتشوف » فكان سـبب اختياره ببـساطة أنه « ابن كلب » ..!! فهو يستطيع بيقين أن يركب الفضاء كما فعلت من قبل أمه « لايكا » .. وبـالمناسبة فـهذا الوصف يعـتبـر من أقذع أنواع السباب فى بولندا ..!

وكنا نزور أحد المصانع فى بولنـدا .. فقابلنا رئيس المصنع مع بعض معاونيه ورحبوا بنا ثم بدا فى الحديث إلينا بحساب شديد.. ويختار ألفاظه بعناية .. ولكنه مـا أن اختلى بأحدنا حتى قال له : انظر إلى العـامل الواقف هناك .. إنه مندوب الحـزب فى المصنع .. ولذلك فإننى مضطر لأن أقـول ما أقوله .. ولكننى أحب أن أوضح أن هذه المصانع التى ترونها .. كل مفاتيـحها فى أيدى السوفيت .. لأنهم يعطوننا المعلومات عن كل المصنع وقطع غياره .. إلى آخره.. ولكنهم يبقـون فى أيديهم معلومة واحدة أو قـطعة غيار أسـاسية لا يبيحون لنا بسرها أبداً .. بحيث يسـتطيعون وقتما يشاءون أن يخربوها .. فـإذا ما تم لهم ذلك فلا يعطون البـديل لها ، فيـتوقف المصنع بأكمله .. وهذه وسـيلة الضغط السوفـيتيـة على حكومتنا الحليفة ..!

ويستطرد المدير بافـتخار .. ولكننا فى هذا المصنع حـدث معنا ذلك .. ولكن مهندسينا الشبان بدافع من وطنيتهم وحبهم لبلدهم.. واصلوا الليل بالنهار حتى أمكنهم إماطة اللثام عن السر المحتكر .. وقاموا بـتصنيع قطعة الغيـار الخربة .. ودارت تروس المصنع من جديد وواصل إنتاجه الحيوى رغم أنف الأصدقاء ..!!

وكان من ضمن السياسة السوفيتية استقطاب الطلبة من الدول النامية حتى يكون لهم كوادر فى المستقبل تدين بدينهم .. وبالولاء لهم .. وإن كانت هذه النظرية غير سليمة تماماً حيث ثبت من قبل عكسها .. فمثلاً الطلبة المصريون الذين درسوا فى إنجلترا وأعجبوا بالإنجليز وبأخلاقهم كشعب .. كانوا من أشد الناس حرباً على الاحتلال البريطانى لمصر فى العشرينات والثلاثينات وما بعدها ..

وبالنسبة للاتحاد السوفيتى .. كانوا يغدقون على الطلبة العرب والأفارقة والآسيويين الذين كانوا يلقون معاملة كريمة جداً فى الدول الاشتراكية .. ولكنهم من ناحية أخرى كانوا يرون بأعينهم على الطبيعة مساوىء الشيوعية .. ولذلك كنت أقول دائماً .. إذا كان هناك شيوعى فى مصر ، فليرسل إلى إحدى الدول الشيوعية ليعيش فيها فيرى بنفسه كيف أن ذلك النظام الشيوعى نظام فاشل ..

وقد أثبتت الأيام بعد ذلك بسنين طويلة أن الجنة التى كانت الشيوعية تعد الناس بها كانت وهماً .. حيث لم يكن لها وجود إلا فى نطاق زعماء الحزب وقياداته .. وأن النظام بأسره كان فاشلاً ولذلك فإنه عندما سقط عام ١٩٩١ .. لم يجد أحداً يحميه .. لأن أحداً لم يكن مؤمناً به إيماناً حقيقياً ..

نعود إلى الواقعة محل هذا الفصل .. وهى الظاهرة المعادية لنا فى وارسو .. وكيف أمكننا أن نفرقها فى سلام .

فى عام ١٩٦٣ كان الرئيس العراقى الراحل عبد السلام عارف قد تمكن من السيطرة على الحكم .. بعد تصفية عبد الكريم قاسم وأعوانه .. وتمت فى نطاق تصفية الحسابات مذابح وإجراءات قمعية ضد الشيوعيين وأنصار عبد الكريم قاسم على عادة ما يحدث فى العراق ..

كنت ذات صباح ذاهباً إلى السفارة الواقعة فى شارع فيذفولينيا بأحد الأحياء الحديثة فى العاصمة .. وكانت السفارة تشغل دوراً كاملاً فى إحدى العمارات السكنية المكونة من أربعة طوابق .. ووقفت بسيارتى فى موقف السيارات المخصص للسفارة .. وفوجئت بجمع كبير من الطلبة العرب الذين يدرسون فى بولندا يقفون حول السفارة فى شكل مظاهرة .. ومظاهر الشر تتطاير من عيونهم .. ويهتفون ضد عبد الناصر ومصر ..

وفى الحقيقة .. أننى لأول وهلة خفت .. ولكننى ـ وقد كنت ترجلت من السيارة ـ عزّت على نفسى وكرامتى أن أتراجع .. فاتجهت نحوهم فى طريقى إلى السفارة .. ومشيت وسطهم باسماً ، وإن كانت فرائصى ترتعد من داخلى ..!

ثم توقفت بينهم وسألتهم فى هدوء :

– ماذا تريدون ..؟

قالوا :

– نحن نريد أن نقابل السفير .

وكان السفير فى ذلك الوقت هو السفير سعد عفرة وهو من شباب الصف الثانى للثورة والذى كان رئيساً لهيئة الاستعلامات حتى ١٩٦١ ثم عين بوزارة الخارجية وكان أول منصب له فى الخارج هو منصب سفير الجمهورية العربية المتحدة فى بولندا .

سألتهم عن السبب الذى يريدون مقابلة السفير من أجله .

قالوا :

– للاحتجاج على الأعمال الإجرامية لعبد السلام عارف الذى تؤيده مصر والرئيس عبد الناصر ضد الشيوعيين .

قلت لهم إنه من غير المعقول وهم يعلمون حجم السفارة المصرية الصغيرة فى المبنى ، أن يقابلوا السفير بهذا العدد الكبير.. فلن تكون المقابلة عملية أو مجدية .. وأن الأفضل أن يختاروا

خمسة من بينهم أصحبهم معى لمقابلة السفير وإبداء ما يرونه ..

تشاوروا فيما بينهم بسرعة ثم وافقوا على اقتراحى - فاستكملت مسيرتى ومعى الخمسة وسط الحشد الكبير وصعدنا السلم إلى الدور الأول حيث مقر السفارة . وما أن فتح بابها حتى فوجئت بتدفق كل الطلبة المتظاهرين داخل السفارة حيث ملأوا صالون الانتظار الصغير وكل الطرقات ووقف مَنْ لم يتمكن منهم من الدخول على السلم حتى آخره ..!

ودخلت إلى الصالون وناديت زعماءهم .. وقلت لهم إننى آسف حيث لن أفعل شيئاً لكم ، لأننا عندما نتكلم كرجال يجب أن نحترم كلمتنا .. وأنا لا أقبل هذا الذى يحدث أبداً بأى حال .. فأخذوا فيما بينهم يتشاورون مرة أخرى بسرعة وبدأوا يدفعون الطلبة إلى الخارج حتى لم يبق منهم فى السفارة سوى ثمانية أفراد .

وهنا أخذت مكانى بالصالون حيث لحق بى المستشار الثقافى بالسفارة المرحوم الأستاذ الدكتور / فؤاد عسل الذى كان أستاذاً للكيمياء ثم عميداً لكلية الهندسة بجامعة القاهرة .. واتفقت معه على أن يترك لى لحظات فى البداية لأوجه المناقشة ..

وبدأ الطلبة يتحدثون بعصبية وفى غير ترتيب .. فقلت لهم قبل أن نبدأ الحوار فلنتعارف أولاً .. وأشرت إلى أحدهم وكان سودانياً.. وكانت المجموعة من دول عربية مختلفة - وسألته :

– ما اسمك ..؟

– أنا فلان .. من بلد الشاويش عطية - وهو يقصد به الفريق أحمد عبود الذى كانوا يتهمونه بالعداء أيضاً للشيوعيين .

قلت له :

– أولاً .. الشاويش عطية أو غيره هذا شأنكم أما بالنسبة لى فالسودان له عندى معزة خاصة .. لأننى عشت وتربيت فيه منذ

كان عمرى سنتين .. ولمدة ثمانى سنوات هى عندى من أحلى سنوات العمر ..!

وبدأت أعدد أماكن فى السودان مثل : جبل الأولياء .. وشجرة عوردون .. وسوق أم درمان وأرض الجزيرة وغيرها .. وبدأت أذكره بأيام الثلاثينات .. وبساطتها .. وأسعار السلع الخرافية حيث كان زوج الدجاج بثلاثة قروش والخروف بستين أو سبعين قرشاً ..

فأخذ الحديث طابعاً ودياً جعل الاسترخاء على وجوه الحاضرين يحل محل التوتر ..

وهكذا فعلت مع الثانى والثالث .. حيث بدأت استمع من كل منهم عن نفسه وبلده التى أتى منها .. ويبدو أن نظرية الغربة والحنين للوطن قد أخذت تأتى مفعولها .. حيث بدأ كل منهم يتحدث بزهو وافتخار عن بلده التى أتى منها .. ويعدد الحسنات فيها ..

وبعد أن استمعت إليهم سألتهم عن سبب المقابلة . فقال كبيرهم :

– لقد أتينا للاحتجاج على الأعمال الإجرامية التى قام بها السفاح عبد السلام عارف ضد الشيوعيين .. قلت :

– وما شأننا نحن بذلك ..؟

قالوا : إنكم تؤيدون عبد السلام عارف ..

قلت :

– إن مصر قامت فيها ثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كما تعلمون.. وهى ثورة بيضاء لم ترق فيها أى نقطة دماء .. نحن بطبيعتنا ضد سفك الدماء .. فمَنْ الذى قال لكم إننا فى مصر نؤيد ما حدث من سفك دماء فى العراق ..؟

ولكن الذى حـدث وهو أمر مؤسف أن ثورتـكم عام ١٩٥٨ فى البداية بدأت بالدماء .. حيث قتل نورى السعيد ..

وقـتل الملك فيـصل والمئـات الآخرون فى بداية الثـورة .. هذه طبيـعة الشـعب العراقى .. ونحن فى مصـر لا نرضـى عن ذلك .. ولا نرضى عن الدمـاء التـى تسـفك ولا عن السـحل والتـعـذيب والإرهاب .. ولكن هذا كلـه ليس لنا دخل فـيـه ولا شـأن لنا بتلك الممارسات .. ومن قبل عبد السـلام عارف ، عبد الكريم قاسم فعل الكثير والكثـير .. وأنتم أعلم به منى .. ونحن لا نرضـى عن ذلك .. وبعد عـبد السلام عارف سـيأتى شخص آخـر يفعل نفس الشـىء مع خصومه أو رجال العهد الذى سبقه .

هذا كله ضد طبـيعة الشعـب المصرى .. ونحن ـ على العكس ـ نقدم الدعم لكل وطنى عربى من منطق القومية العربية ..

وفى النهاية قلت لهم :

– إن المستشـار الثقافى المصرى هـو مستشار الدولة الـعربية الوحـيدة الـتى لها تمثـيل دبلومـاسى فى وارسـو . وهو مع ذلك يرعى مصـالحكم جميعاً .. هل قصر فى شـىء ..!

قالوا :

– لا . على العكس .. هذا رجل فاضل وهو دائماً يساعدنا ..

قلت لهم :

– إذن ما هو مطلبكم بالتحديد ؟

قالوا :

– أن نقابل السفير ..

قلت :

– لماذا ..؟!

قالوا :

– نسلمه برقية احتجاج إلى عبد الناصر ..

قلت :

– أقرأوا هذه البرقية ..

فقام أحدهم بقراءتها .. كلها هجوم على عبد السلام عارف وعلى عبد الناصر الذى يؤيد عبد السلام عارف ..

قلت :

– حسن .. وماذا تريدون من السفير أن يفعله ..؟

قالوا :

– أن يرسل البرقية إلى عبد الناصر ..

قلت :

– إن السفير ليس ساعياً للبريد .. إن أمامكم مكتب البريد والتلغراف على ناصية الشارع .. ومن حقكم أن ترسلوا من خلاله ما تشاءون بخطاب فى البريد أو برقية كما تفضلون .. أما السفارة فليس هذا عملها .. ولذلك فإن السفير يمكن أن يقابلكم فى أى وقت لأى سبب آخر ولكنه لن يقابلكم لهذا السبب ..

وأخذوا يتشاورون .. ويبدو أنهم اقتنعوا بهذا المنطق . فانصرفوا ونزلوا إلى زملائهم المنتظرين فى الساحة ، أسفل السفارة .. حيث شاهدناهم من النافذة يتناقشون فى حدة ويتبادلون الاتهامات لدقائق .. ثم تفرقوا منصرفين فى سلام فى اتجاهات مختلفة ..!

وهكذا انتهت هذه المحنة التى كان يمكن أن تتطور وتترتب عليها نتائج لا تحمد عقباها ..!!

فنلنـدا ..

٢. الفول المدمس وفنجان القهوة المصرى .. يصنعان السلام ..!!

الزمان .. أكتوبر عام ١٩٦٣ .. وكانت « الجمهورية العربية المتحدة » فى ذلك الوقت .. تخرج من معركة لتدخل فى معركة .. السد العالى .. تأميم قناة السويس .. العدوان الثلاثى : (إسرائيل وبريطانيا وفرنسا) .. الحصار الاقتصادى .. حلف بغداد .. الوحدة مع سوريا .. القرارات الاشتراكية .. الانفصال .. مساندة ثورة اليمن .. بدء بناء السد العالى .. التصنيع .. إلخ .. إلخ ..

والمكان .. مدينة هلسنكى .. عاصمة فنلندا .. ذلك البلد الذى يقع فى أقصى الشمال من أوروبا .. ويقطع شماله خط القطب الشمالى .. حيث تترامى أراضى لابلاند التى تشرق عليها الشمس فلا تغرب ستة شهور كاملة .. ويطبق عليها الظلام فلا ينقشع .. الشهور الستة الأخرى من العام ..!!

ذلك البلد الصغير المسالم .. والشعب الطيب الذى يتمتع وسط المجموعة الاسكندنافية بشخصية متميزة ولغة مختلفة لا مثيل لها فى المنطقة أو فى العالم .. فلا هى لغة لاتينية .. ولا جرمانية .. ولا سلافية .. ولكنها لغة خاصة بذلك الشعب الذى لا يتجاوز تعداده الملايين الخمسة .. اضطر خلال الحرب العالمية الثانية أن يحارب مع الألمان ليطرد الروس من بلده .. وعندما تم له ما أراد اضطر أن يحارب الألمان الذين استمروا البقاء فى فنلندا ليطردهم.. بدورهم ..

وكنت .. فى ذلك الوقت سكرتيراً ثالثاً لسفارة الجمهورية العربية المتحدة .. وكنت مكلفاً بالإضافة إلى العمل السياسى

والدبلوماسـى .. بالقيام بالمهـام الإعلامـية والثقـافية والقـنصلية والسياحية .

وحدث .. أن طلبت الجمـعية الفنلندية للأمم المتحـدة من سفراء الدول المختلفة المقيمين بهلسنكى المشـاركة فى موسـم للمحاضرات السياسية .. يقام كل أسبـوع .. واتصل رئيس الجمعية ضمن من اتصل بهم .. بالسـفيـر المصـرى .. وكنا فى ذلك الوقت السفـارة العربيـة الوحيدة التى لهـا تمثيل مقيم فى هـلسنكى .. وطلب إليه المشاركـة فى موسم المحاضـرات .. وترك له موضوع المحـاضرة مفتوحـاً .. وإن كان قد ألمح إلى أن سفير إسـرائيل سوف يشارك بمحاضـرة من جـانبه وأنه ، أى رئيس الجمعـية ، يتوقع أن يتناول فيها شرح سياسة بلاده .. وأنه حدد موعداً له فى الأسبوع التالى وسيكون موعد محاضرة السفير المصرى فى الأسبوع الذى يليه.. إذا ما وافق على المشاركة ..

وقد استدعـانى السفير للتشاور معـى فى الأمر وأظهر تحفظاً على قبول الدعـوة نظراً للأسبقية التى منحت للسفـير الإسـرائيلى فى إلقاء مـحاضرته ولأن الحوار أو شـبهة الحوار مع المسـئولين الإسرائـيليين كـانت فى ذلك الوقت أمراً لا تتـقبله الدبـلوماسـية العربية بشكل عام ..

وكان رأيى أن نقبل الدعوة ، وأن الأسبقـية التى منحت للسفير الإسرائيلى يمكن أن نحـولها إلى ميزة فى جانبنـا .. وأننى أتعهد بذلك .. وأن السفير المصرى لن يجلس أمام السفير الإسرائيلى فى مكان واحـد ولن يتـحـدث إليـه مبـاشـرة .. وهذا يحـدث فى كل المؤتمرات الدولية .. إلخ .

ولما رأى السفير حمـاسـى للمشاركة كلفنى ـ كحل وسط ـ بأن أقوم بإلقاء المحاضرة طالما أننى كنت المسئول الإعلامى بالسفارة..

ولم أتردد فى قبول المهمة .. ولم أضيع وقتاً ..

وبادرت بالاتصال بصديق لى فى السفارة السوفيتية ورجوته ـ إذا سمح وقته أن يحضر هو محاضرة سفير إسرائيل وأن يبلغنى بما دار فيها من حديث وما أعقبها من مناقشات حتى آخذ ذلك فى الاعتبار عند إعداد محاضرتى ..

ولم يخب ظنى .. فقد أجاد سفير إسرائيل تمثيل دور الحمل الوديع .. الذى يمثل بلداً صغيراً مسالماً تحيط بها الذئاب الجائعة.. تتحين فرصة مناسبة للانقضاض عليها والتهامها ..!!

وقد أعددت نفسى إعداداً جيداً للرد على تلك المسرحية وتوجهت فى اليوم المحدد للمحاضرة مزوداً بمواد غير مألوفة فى مثل تلك المحاضرات .. فبالإضافة إلى مجموعة من الشرائح الملونة عن مصر لعرضها بالفانوس السحرى كان معى فى حقيبتى « كنكة » نحاسية لصنع القهوة .. ونموذج مصغر لقدرة الفول المدمس ..!!

وكان بالقاعة حشد كبير من الفنلنديين .. أتوا ليستمعوا إلى الرأى الآخر فى القضية .. وتوقعوا أن يروا الممثل العربى الوحيد رجلاً أسمر ، عريض المنكبين .. يكشر عن أنيابه .. التى يعلوها شارب ضخم .. ويجيد الصياح والخطابة الصارخة التى تذكرهم بهتلر .. أو موسولينى .. كما حاول سفير إسرائيل فى خبث أن يدخل فى روعهم أن ذلك هو حال العرب ..!!

وكانت الابتسامة العريضة التى علت وجهى تحية للمحاضرين وأنا أجلس لأتأهب لإلقاء محاضرتى كفيلة بانفراج أساريرهم وارتخاء جباههم التى بدت مقطبة فى البداية ..

وبدأت حديثى ، وقد بذلت جهداً كبيراً لأمحو من ذاكرتى تماماً أن نفس المقعد الذى أجلس عليه كان يشغله فى الأسبوع السابق ـ سفير إسرائيل ـ وبدأت حديثى متجاهلاً أى تعرض للسياسة أو

حتى للموضوعات التقليدية وقلت إننى لن أحدثكم عن الأهرامات المصرية ومعبد أبى سمبل وأبى الهول وغيرها من العجائب .. ولكن أود أن أحدثكم عن الناس فى مصر .. فكيف يعيشون وكيف يأكلون .. وكيف يحبون ..؟

وحدثتهم عن جدى وجدتى وكيف كان بيته الكبير يجمعنا .. كل خالاتى التسع ..!! وأولادهم .. فى مناسبات عديدة .. وكيف كنا نقضى الصيف فى البيت الكبير .. ثم هاجر جدى .. من مصر الجديدة إلى المنيرة !! هربا من الغارات الجوية فى الحرب العالمية الثانية وبعدا عن المطار الدولى .. أما أبى مهندس الرى .. فقد كان له أربعة أولاد فقط .. لأن الحياة تقدمت ثم بعد فترة رزق بولد خامس .. أما أنا فلى ثلاث بنات .. وهذا ربما يكون الحد الأقصى اليوم للأولاد .. لأن كثيراً من أصدقائى اكتفوا بطفلين فقط .. فتطور الحياة يستدعى تنظيم النسل فى مصر .

ثم انتقلت بالحديث عن كيف يأكل الناس .. وتحدثت عن « الشوربة الخضراء » أى الملوخية .. وأصل تسميتها .. ثم تحدثت عن الحاتى الشيش كباب المصرى .. ثم عن « الطعمية » كباب الفقراء .. وعن الفول المدمس .. الذى لا تخلو مائدة فى بيت منه كل صباح ولكنه بالنسبة للفقراء وجبة قد تتكرر أكثر من مرة كل يوم ..

ثم انتقلت من كل ذلك إلى الحديث عن كيف يحب الناس .. وكيف يتزوجون .. وكيف أن جدى لم ير من جدتى سوى صورتها ليقرر الزواج منها .. ومع التطور أصبح العريس يرى عروسه فى النطاق العائلى .. أما الآن .. فإن الأب لا يتعجب إذا ما حضرت ابنته ذات يوم قائلة : أبى إننى سأتزوج هذا الفتى ..!! وتحدثت عن تقاليد الخطبة وكيف أن العريس عندما يأتى ليتقدم

إلى الأسرة لطلب يد فتاته .. فإن الفتاة تدخل إليه حاملة صينية القهوة المصرية .. وهى قهوة مختلفة عن تلك الأوروبية، فلها طريقة خاصة فى الصنع وأخرجت من حقيبتى كنكة القهوة وسط مظاهر الاهتمام والسرور بين الحاضرين .. ليروا على الطبيعة كيف تصنع القهوة فى مصر .. وقلت إنه مع فناجيل القهوة التى تدور ، ومعها كوب الماء المثلج .. تبدأ العواطف الدافئة .. ويتبادل العروسان حديث الحب والمستقبل وعش الزوجية الهانىء ..!!

وانتهيت من كل ذلك إلى القول .. إننا شعب عاطفى .. نحب الحياة .. ونعمل من أجل رفع مستوى الشعب .. وأن الحكومة ترى من واجبها أن تجعل الحاتى « الشيش كباب » أكلة الأغنياء والفقراء على السواء .. ولذلك وضعت الخطط للوصول إلى تلك الغاية .. وتحدثت عن « السد العالى » وعملية التصنيع الكبرى التى تعيشها البلاد .. ومحاولة تحقيق العدالة الاجتماعية .

وخلصت من كل ذلك إلى القول :

إن أمامنا مهمة بناء كبرى فى السنوات القادمة ..

والبناء لا يمكن أن يتحقق إلا بجو السلام .. لأن القتال والحرب لا يعنيان إلا الهدم والدمار .. ولذلك فإننا نؤمن بالسلام إيماناً استراتيجياً .. ولكن السلام ينبغى أن يكون سلاماً عادلاً .. فلا يمكن أن يطردنى غريب من بيتى إلى غرفة واحدة فيه .. ثم يدعو أقاربه وأصدقاءه - لاحتلال البيت - ثم يطردنى مرة أخرى من تلك الحجرة - حتى لا يبقى لى - وأنا صاحب البيت الأصلى - إلا أمتار قليلة بجوار السلم لا تكاد تكفى لأنام فيها واقفاً أنا وأسرتى وأولادى ويضطر بعضنا إلى الهيام إلى الشارع والإقامة على الرصيف ..!!

وبهذه الخاتمة عرجت على القضية الفلسطينية شارحاً أبعادها

وكيف أن الشعب الفلسطينى تشرد وأصبح أكثره من اللاجئين الذين يعيشون فى الخيام ، بعد أن كانوا سادة فى أرضهم التى اغتصبت بقوة السلاح .. وأن ذلك الشعب لا يتعصب ضد الأديان.. ولكنه يرفض الاحتلال ويرفض الأطماع الصهيونية .. وهو على استعداد للعيش مع اليهود كمواطنين فى بلد واحد ديمقراطى فى سلام .

وبعد أن انتهيت من محاضرتى .. توالت التعليقات من الحاضرين ومن رئيس الجمعية وكانت كلها تدور حول عبارة واحدة ..

« الآن تعلمنا وفهمنا الكثير عن مصر والعرب »

« وقضاياهم العادلة »

فنلندا ..

٣ - احذرى تماسيح النيل ..!!

الزمان .. أبريل ١٩٦٤ .. وفى هذا الشهر كان يبدأ الاستعداد لموسم الصيف السياحى فى مصر وهو موسم محدود بالنسبة للسياح القادمين من أوروبا حيث يفضل معظمهم الحضور إلى مصر فى الشتاء للاستمتاع بدفء شمسها .. ومع ذلك كان بعضهم يأتى فى الصيف ـ موسم الإجازات ـ إذا لم تكن هناك فرصة أخرى أمامهم للسفر فى الشتاء .

المكان .. مكتبى فى السفارة المصرية بهلسنكى .. حيث أتت إلىّ فتاة فنلندية فى السادسة عشرة من عمرها تدعى « كيا » وهو اسم فنلندى شائع وطلبت منحها تأشيرة لزيارة مصر خلال شهور الصيف من يونيو إلى أغسطس .. لقضاء فترة إجازتها

السنوية مع والدها الذى يعمل خبيراً فى مصر .. وقد رحبت بها.. وخلال الدقائق القليلة التى استغرقتها إعداد تأشيرة الدخول لها بواسطة معاونى فى القسم القنصلى ، دار بيننا حوار غريب ..!

قالت : أنا طلبت التأشيرة للذهاب إلى بلادكم ولكننى خائفة ..

قلت : مم ؟!

قالت : يقولون أنكم تضربون الناس فى ظهورهم بالخنجر ..؟؟

قلت : لم أفهم ..!!!؟

قالت : هكذا يقال .. أنتم العرب .. لا يمكن الاطمئنان إليكم وأن من شيمكم الغدر .. وتضربون الناس فى ظهورهم بالخنجر ..

قلت : « ضاحكا » .. مَنْ الذى قال لك هذا الكلام الفارغ ..؟!

قالت : الأفلام الأمريكية التى نشاهدها ..

قلت : إن صناعة السينما أحياناً ما تخضع لسيطرة الصهيونية التى من أهدافها تشويه سمعة العرب .. ولا تصدقى ما ترينه فى الأفلام .. هم يشوهون أشياء كثيرة ..

قالت : ولكننى خائفة من الحيوانات المفترسة والتماسيح ويقولون إنها يمكن أن تخطف مَنْ يسير بمفرده مساءً على شاطىء النيل ..

قلت : (وقد وجدت إلا فائدة من الجدل) .. أين يقيم والدك فى مصر؟

قالت : فى منطقة اسمها « المعادى » قريبة من النيل .

قلت : إذن يمكنك أن تخبريه أن يشعل ناراً بجوار الخيمة التى تنامون فيها .. هذا عن الوحوش .. أما التماسيح، فأنصح أن تحملى فى جيبك عدداً من البيضات المسلوقة وكلما صادفت تمساحاً على الشاطىء، فيكفى أن تلقى إليه بيضة ، فيتلقفها ويهز ذيله شاكراً ويمضى لحاله .! أما القرود، فإنها بطبيعتها صديقة للسياح .. ولذلك فسوف يلقون إليك بثمرة جوز الهند من فوق أشجارها ..!!

وقلت لها وأنا أسلمها جواز سفرها .. عليه تأشيرة السفر .. إننى سأكون فى الصيف فى القاهرة ، ولذلك سيسعدنى أن تأتى لزيارتنا فى بيتى بالهرم ومعك والدك ووالدتك .. لنتناول الشاى فى رعاية جدنا الأكبر السيد « خوفو » ..!!

وفى الصيف حضرت « كيا » مع أسرتها .. ولا يمكن أن أنسى ونحن نرحب بهم عند مدخل بيتنا نظرة الخجل والاعتذار الشديد فى عينيها الزرقاوين الجميلتين .

وقلت لها مداعباً : حمد الله على السلامة .. أنت سالمة حتى الآن..؟

قالت : « كيتوس » أى أشكرك ..

قلت : تعلمت كيف تشغلين عنك تماسيح النيل ..!!؟؟ تذكرين وصفة البيضة المسلوقة ..؟!

قالت : (وهى تدبدب الأرض برجليها) : أرجوك .. أرجوك .. لا تذكرنى .. كم كنت جاهلة .. ساذجة .. بل وبلهاء ..!

وضحك والدها ووالدتها مؤمنين على كلامها .. ودلفنا جميعاً إلى البيت لتناول الشاى .

ماليزيا..

٤ - مصر عمرها سبعة آلاف سنة..!!

كنت قد نقلت فى الحركة الدبلوماسية التى صدرت فى أبريل سنة ١٩٦٧ سكرتيراً ثانياً بسفارتنا فى كوالالمبور عاصمة ماليزيا. وكان المفروض أن اتسلم عملى الجديد فى يوليو ١٩٦٧ ولكن النكسة التى وقعت علينا جميعاً وقع الصاعقة أوقفت أموراً كثيرة من بينها مواعيد تنفيذ الحركة الدبلوماسية ..

لقد أصابتنا النكسة وحجم الهزيمة ونوعها بجروح غائرة ..

وأخطر منها بهزات نفسية عنيفة ومشاعر هى مزيج من الغضب والشعور بالمهانة وأننا قد خدعنا من أقرب الناس إلينا من قادتنا ومخابراتنا .. وفكر البعض في الاستقالة .. وكنت واحداً من هذا البعض .. ولكننى بعد تأمل متعمق عدلت عن هذه الفكرة أولاً لأننى لم ارتكب خطأ أشارك به فيما وقع بل إن ما قمت به فى موقعى كان أكثر بكثير مما هو مطلوب منى .. فمنذ بداية الأزمة اعتبرت أننا فى مواقعنا بوزارة الخارجية .. تماماً كقواتنا المسلحة المتقدمة .. نقف على خط الدفاع الأول عن أمن مصر .. وأن ذلك يضع علينا واجبات مضاعفة . فاتفقت مع زملائى بغير أى تعليمات تصدر لنا على أن نغطى فى عملنا ساعات اليوم الأربع والعشرين كاملة .. ونظمنا دورات للمبيت .. أخذين فى اعتبارنا أنه فى الوقت الذى يسود فيه الظلام هنا وينام الناس تكون أماكن أخرى من العالم فى ذروة النهار وقمة النشاط .

وباختصار كان ضميرى مرتاحاً تماماً من هذه الناحية .. ومن ناحية أخرى فقد فكرت أن الاستقالة هى عمل سلبى وأن أحوج ما تكون إليه مصر فى تلك الأيام هو تكاتف كل جهود أبنائها لتجاوز المحنة .

بل إننى أعتقد وأؤمن حتى اليوم .. أن بناء مصر وإطلاق عجلة التنمية فيها هو أيضاً فى حاجة إلى كل جهود أبناء مصر ، فلن يبنى بلادنا إلا أبناؤنا .

ولكننى من ناحية أخرى صممت على أن أقوم بعملى فى الخارج .. بأسلوب يختلف تماماً عن أسلوب الإعلام الذى كان سائداً من قبل .. وأن علينا أن نعترف بأخطائنا .. وأن ننقل إلى العالم الواسع من حولنا الحقائق عما يجرى فى بلادنا .. وعاهدت نفسى على ذلك مهما كانت النتائج . وسافرت إلى ماليزيا فى

يناير ١٩٦٨ وتسلمت العمل هناك وكان من بين الأعمال الموكلة إليّ .. إلى جانب العمل السياسي .. الشئون الثقافية والإعلامية ، ومن هذا المجال الواسع انطلقت أجوب ولايات ماليزيا الثلاث عشرة .. وماليزيا لها نظام فريد في نوعه .. فلها ملك ينتخب كل خمس سنوات من بين سلاطين الولايات الثلاث عشرة .. فكان لكل ولاية سلطان أو حاكم .. وكنت أجوب بسيارتى فى برنامج للزيارات أغطى به كل شهر إحدى الولايات على الأقل .. وكنت أسافر مئات الأميال لأقابل الناس فى كل ولاية .. من الكليات الإسلامية والجامعات .. وأعضاء المجلس النيابى فى الولاية وأعضاء الحكومة ورئيس الحكومة والسلطان فى بعض الأحيان .. وكان الناس يرحبون بى أكبر ترحيب باعتبارهم يرون أول مصرى يذهب إلى تلك المجاهل بنفسه .. وكنت أصطحب معى العديد من الهدايا الرمزية مثل: اسطوانات المصحف المرتل والكتب الصغيرة سواء الدينية (كيف تتعلم الصلاة وأحكام الزكاة وكيف تصوم إلى آخره) .. أو أيضاً كتباً إعلامية عن « الجمهورية العربية المتحدة » فى ذلك الوقت . وكان الاستقبال يختلف من بلد إلى آخر وأنواع اللقاءات التى تعد تختلف من ولاية إلى أخرى، فأحياناً كنت أعطى محاضرات فى الجامعة وأحياناً كنت أدعى إلى المجلس النيابى حيث أخاطب الناس وأشرح لهم كيف أننا رغم هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧، فإن شعبنا العريق الذى واجه من قبل محناً وشدائد عديدة مصمم على تجاوز الهزيمة وعلى أن يحشد كل قواه لتحرير بلاده .. وكنت أحياناً أجد نفسى وسط ميدان فسيح به الآلاف من المواطنين الماليزيين الذين احتشدوا ليستمعوا إلى ممثل مصر القادم إليهم من آخر الدنيا .. فأجد نفسى مضطراً لإلقاء خطاب مرتجل لا يعتمد على أسلوب المحاضرة أو الحديث وإنما خطاباً حماسياً أؤكد فيه هذه المعانى ..

وحدث أن طلبت إلينا الوزارة فى حوالى أبريل سنة ١٩٦٨

وكنت قد مضى عليَّ في ماليزيا حوالى أربعة شهور .. أن نبلغ المسئولين والإعلام عن الوضع القائم وعن الجهود التى بذلت لإعداد الجيش وعن حرب الاستنزاف التى بدأت بقوة فى سيناء الغالية العزيزة على كل مصرى .. وطلب إلىّ السفير أن أتولى هذه المهمة .. ولم أتردد .. وإنما دعوت إلى مؤتمر صحفى كبير .. بمكتبى بالسفارة تشارك فيه الصحف وممثلو وكالات الأنباء العالمية الموجودين فى كوالالمبور .. وأفضت فى المؤتمر في شرح الموقف .. والإجابة عن الأسئلة العديدة التى وجهت إلىّ حول الوضع فى الشرق الأوسط وحول ما نتطلع إليه وما نقوم به لاسترداد أرضنا المحتلة .. وفجأة .. قرب نهاية المؤتمر .. وجه إلىّ صحفى استرالى خبيث سؤالاً بقوله :

– ماذا بعد ناصر ؟ What after Nasser

وفى ذلك الوقت كانت هناك شائعات عن مرض جمال عبدالناصر وأنه يشكو من أن السكر الذى انتابه قد امتد إلى ساقه وأنه سافر إلى الاتحاد السوفيتى سراً للعلاج .

وكان هذا الصحفى يقصد بذلك إحراجى وقد توقع أننى سأنفى الشائعات وأكذبها وأقول له إن الرئيس بخير ولا خوف عليه وهو مستمر وإلى آخره ..

ولكننى رددت على سؤاله بسؤال مقابل قلت له :

– كم عمر عبد الناصر ؟

قال وهو مندهش للسؤال :

– حوالى ٥٣ سنة ..! قلت له : إن مصر عمرها أكثر من سبعة آلاف سنة .. ! فأسقط فى يده ولم ينبس ببنت شفة .. وكان رداً بليغاً .. ومفحماً لم يستطع معه إلا أن يحنى رأسه احتراماً.. مصر كانت وستكون دائماً بإذن الله .. وانتهى المؤتمر بنجاح ..

وكان عنوان الرسالة التى بعث بها الصحفى لجريدته : « مصر عمرها ٧٠٠٠ سنة ..! » .

ماليزيا ..

٥ - المؤتمر الإسلامى الأول فى كوالالمبور
مارس ١٩٦٩

من المعروف بشكل عام أن المؤتمر الإسلامى الأول قد عقد فى الرباط فى سبتمبر ١٩٦٩ على أثر محاولة إحراق المسجد الأقصى فى ٢٩ أغسطس ١٩٦٩ .. وكان المؤتمر على مستوى القمة ودعا إليه الملك الحسن ملك المغرب وحضرته الدول العربية والإسلامية ومن بينها مصر والرئيس جمال عبد الناصر شخصياً .

ولكن ما لا يعرفه الكثيرون هو أنه قد عقد فى كوالالمبور بماليزيا فى شهر مارس من نفس العام ١٩٦٩ أول مؤتمر إسلامى حكومى على مستوى وزارى .. وهذا المؤتمر هو الذى جعل من الممكن أن ينعقد مؤتمر القمة الإسلامى فى سبتمبر التالى سنة ١٩٩٩ ..

ولانعقاد هذا المؤتمر الإسلامى الأول قصة نسجلها للتاريخ .. كان الزعيم الماليزى الكبير تنكو عبد الرحمن رئيس الوزراء فى ذلك الوقت والذى كانوا يطلقون عليه « تنكو الباسم » أو « تنكو السعيد » ويشبهونه هناك بالنحاس باشا فى مصر .. نظراً لشخصيته البسيطة (الهليهلى إذا جاز استخدام الكلمة العامية).. علماً بأن « تنكو » هو مثل لقب « باش » وهناك ألقاب أخرى مثل « داتو » كلقب بك و « تون » وهو بين الاثنين .

ودعا تنكو عبد الرحمن فى أكتوبر ١٩٦٨ إلى عقد مؤتمر فى كوالالمبور على مستوى وزراء الأوقاف أو مَنْ يماثلهم للتشاور فى الأمور التى تهم المسلمين . وكان من رأيه أنه من العيب أن يكون الإنسان قد خطا فوق القمر ولا يزال المسلمون لم يتفقوا على

موعد واحد لبدء شهر رمضان أو على موضوعات مثل : تحديد النسل وفوائد البنوك وغير ذلك ..

وكانت القيادة المصرية تتسم وقتها بالحساسية الشديدة تجاه المؤتمرات الإسلامية التى كانت تدعو إليها عادة رابطة العالم الإسلامى بالسعودية وتستخدم ضد مصر وضد سياسة الرئيس عبد الناصر ..

ولما كنت فى ذلك الوقت سكرتيراً ثانياً وأقوم إلى جانب العمل السياسى بعمل الملحق الإعلامى والثقافى .. فعندما تلقت السفارة الدعوة والمذكرة الشارحة لتصور الدولة الداعية للمؤتمر والمشاركين فيه وجدول أعماله .. أحالها السفير إلىَّ لأحيلها بدورى إلى وزارة الخارجية بالقاهرة ..

وقد وجدت من المناسب ألا أحيل الدعوة كنوع من الروتين ثم أنتظر إذا ما طلبت الوزارة إيضاحات أو تعليق من جانب السفارة أن أعده .. وإنما رأيت من الأوفق أن أعد تقريراً عن الموضوع ترفق به الدعوة لأننى كنت أعتقد أننى من موقعى يمكن أن يكون رأيى مفيداً للمسئولين فى القاهرة حول ظروف توجيه الدعوة .. والدوافع إليها من وجهة نظر ماليزيا وتنكو عبد الرحمن موجه الدعوة - ثم ماذا تستفيد مصر من المشاركة .. وبالفعل أعددت تقريراً فى حوالى ٤٠ صفحة يغطى كل هذه الجوانب وانتهيت فيه إلى أن الدعوة لا تندرج ضمن المناورات السياسية التى كانت تستخدم الإسلام لتحقيق أهداف سياسية ..

وقلت إن مشاركة مصر بوفد قوى سوف يجعل مصر فى دورها القيادى الذى قامت به دائماً فى المجال الإسلامى ..

وقد عرض ذلك التقرير - كما علمت فيما بعد - على أعلى مستوى فى القاهرة التى وافقت على حضور المؤتمر .

وهكذا وصل إلى مطار كوالالمبور فى مارس ١٩٦٩ وفد مصرى عالى المستوى ضم خمسة أعضاء هم: الدكتور عبد العزيز كامل نائب رئيس الوزراء ووزير الأوقاف .. والشيخ على هريدى مفتى الديار المصرية الذى كان حجة .. وينبوعاً متدفقاً فى المسائل الدينية .. والدكتور عبد الرحمن بدوى الأستاذ الجامعى والفيلسوف والدارس الإسلامى المتخصص فى الاقتصاد (وقد طالعت نبأ وفاته أثناء كتابة هذه السطور عن ٨٤ عاماً وكأنها كتبت تأبيناً له واعترافاً بفضله وقد نشرت الصحف الصادرة اليوم ٢٠٠٢/٧/٢٦ النبأ على النحو التالى : « وفاة الفيلسوف الكبير الدكتور / عبد الرحمن بدوى : توفى أمس بمستشفى معهد ناصر المفكر والفيلسوف الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوى عن عمر يناهز ٨٤ عاماً . والدكتور بدوى واحد من أكثر فلاسفة مصر والعرب فى العصر الحديث ومن أكثرهم شهرة ، وهو أول من نال جائزة مبارك فى العلوم الاجتماعية التى تعتبر أرفع الجوائز العلمية فى مصر » .

كما ضم الوفد الأستاذ الدكتور / أحمد شلبى الأستاذ المعروف بكلية الآداب وهو من خريجى دار العلوم على ما أذكر وكان إذا تكلم أنصت المؤتمر بأسره بغير أى حركة ولو صغيرة ليستمع إلى صوته ليتحدث بطلاقة بلغة عربية جميلة وصحيحة ..!! أما العضو الخامس فكان السكرتير الثانى عبد الحميد سعد الله (السفير فيما بعد) وقم انضم إلى الوفد من السفارة السفير المصرى بكوالالمبور خير الدين نصار وكاتب هذه السطور ..

وبالفعل كانت مشاركة مصر بذلك الوفد رفيع المستوى شكلاً وموضوعاً .. ذات أثر مهم فى دفع مداولات المؤتمر إلى الأمام والتوصل إلى قرارات وتوصيات مهمة للدول الإسلامية ..

ولم تخل الأيام الثلاثة التى استمر المؤتمر خلالها من مفارقات وطرائف .. أذكر منها وقعتين تصادف أن الشيخ هريدى المفتى وهو عالم فاضل بغير شك ولا يخلو فى الوقت نفسه من روح خفيفة .. هو العامل المشترك فيهما ..

أما الواقعة الأولى، فكانت فى فندق فيدرال الذى كان يقيم به الوفد وقد تناولنا الغداء بالفندق مع الوفد فى أول أيامه بالفندق ..

وخطر ببالى وزوجتى فى اليوم التالى أن نمر على الفندق بعد انتهاء الجلسة الصباحية للمؤتمر لتناول الغداء ونطمئن على أعضاء الوفد .

ووجدنا الشيخ هريدى فى المطعم وقد قارب على الانتهاء من الغداء ..

وسألته كيف تصرفت مع الجرسونات الصينيين (فهو لا يعرف الإنجليزية وهل استعنتم بمترجم فأجاب بالنفى .. ثم قال : لا مشكلة ..

لقد أشرت إلى الجسون فحضر .. قلت له باللغة العربية : « لقد كنا هنا بالأمس وجلسنا على هذه المائدة » وطبعاً كانت الإشارات بالأيدى تساعدنى .. فهذا الجرسون الصينى رأسه فى أدب جم مؤمناً على كلامى ..

قلت له باللغة العربية أيضاً : لقد احتسينا شوربة .. ومثلت له أننى أمسك بملعقة وأحتسى الشوربة .. فهز الجرسون رأسه مؤمناً.. قلت : ثم بعد ذلك أكلنا سمكة وأشرت بكلتا يدى إلى شكل السمكة .. فهز الجرسون رأسه مؤمنا .. قلت بالعربية أيضاً : ثم بعد ذلك أكلنا فرخة بالأرز .. وانصرف الجرسون بابتسامة كبيرة وأتى لى بالطعام بالتسلسل المضبوط الذى حددته له .. ولم يبق سوى الحلو وقد تركته لذكائه ..!! وهنا فقط كان تدخلنا حيث

طلبنا الأيس كريم ثم القهوة للشيخ الجليل ..

أما الواقعة الثانية، فكانت فى ردهات المؤتمر وكنا فى استراحة بين جلستين نتناول القهوة .. وانتحى بى الشيخ هريدى جانباً وقال لى إنه يرغب فى استشارتى فى أمر يقلقه ولم ينم بسببه بالأمس ..

قلت : – تفضل فإنى آذان صاغية ..

قال :

– الجلسة التى سندخل إليها الآن سيطرح من بين الموضوعات التى سوف تطرح فيها موضوع تحديد النسل .. أو تنظيم الأسرة أياً كانت المسميات .. وأنا لست موافقاً على ما تدعو إليه الحكومة فى هذا الشأن ولم أصدر فتوى فى هذا الموضوع خلال فترة ولايتى ، ولذلك فأنا لا أستطيع أن أوافق على قرار يتخذه المؤتمر بتحديد النسل ..

أجبت فى شكل سؤال :

– مَنْ رئيس الوفد ؟

قال :

– الدكتور عبد العزيز كامل وأنا أعلم أنه سيوافق على مثل ذلك القرار لأنه يمثل الحكومة ..

قلت :

– إن كل عضو فى الوفد مستشار لرئيس الوفد .. ولذلك وحتى ترضى ضميرك ، فعليك أن توضح رأيك هذا وسندك فيه لرئيس الوفد .. وهو بعد ذلك مسئول عن القرار الذى يتخذه أمام الله والدولة التى أوفدته وبذلك تخلى مسئوليتك أمام ضميرك وأمام الله .

قال :

- أهو أنت دلوقتي ريحتني يا شيخ .. ده أنا ما نمتش من إمبارح ..!!

ودق الجرس لبدء الجلسة وقمنا إلى الاجتماع ونودى على البند الخاص بتنظيم الأسرة وطرح مشروع القرار المعد فى هذا الشأن للتصويت وسأل الرئيس عمن يصوت لصالحه، فصوتت لصالح القرار أغلبية من الدول من بينها مصر .. ثم سأل الرئيس عمن يصوت ضد القرار فصوتت أقلية من الدول أذكر من بينها السودان ضد القرار .. وإذا بالشيخ هريدى يقف رافعاً يده بالتصويت قائلاً أنا ضد القرار ..!!

وأمسك د. عبد العزيز كامل بيده قائلاً :

- أقعد يا شيخ هريدى .. مصر صوتت خلاص .. فيقول الشيخ هريدى صائحاً :

- سيبنى .. أنا لازم أعطى صوتى .. أنا غير موافق .. غير موافق على هذا القرار ..!! وضحك الأعضاء جميعاً وقال له الرئيس مطيباً خاطره ..

- خلاص يا شيخ هريدى .. المؤتمر أخذ علماً بموقفكم.. وطبعاً مر القرار لحصوله على الأغلبية اللازمة.

وأخيراً ، فإن النجاح الذى حققه المؤتمر بعد إنهاء أعماله يرجع إلى المساهمة الإيجابية للوفد المصرى فى أعماله ..

ولكن النجاح الأهم هو أن ذلك المؤتمر كان البداية الحقيقية لعقد مؤتمر القمة الإسلامى بعد أول مناسبة اقتضت ذلك وهى حريق المسجد الأقصى فى أغسطس من نفس العام .. وقد تطور المؤتمر الإسلامى ليصبح منظمة دولية هى منظمة المؤتمر الإسلامى وتصبح له سكرتارية دائمة ويعقد اجتماعاته بصفة دورية ..

وكان أول أمين عام للمؤتمر الإسلامى هو تنكو عبد الرحمن

نفسه رئيس وزراء ماليزيا .. ولذلك قصة أخرى .. فقد قامت يوم ١٣ مايو ١٩٦٩ بعد أقل من أسبوعين على انتهاء المؤتمر الإسلامى أحداث عنف بين طوائف الشعب الماليزى وبصفة خاصة الأغلبية الملاوية المسلمة والأقلية الصينية البوذية .. أسفرت عن إعلان الأحكام العرفية وحظر التجول وترتب عليها استقالة تنكو عبد الرحمن وتولى نائبه تون عبد الرازق (أو تون رزاق كما كانوا يطلقون عليه) رئاسة الوزراة ..

وأُعلن بعد ذلك ربما فى يناير ١٩٧٠ أن تنكو عبد الرحمن سوف يتولى الأمانة العامة للمؤتمر الإسلامى - باعتباره زعيماً مرموقاً لدولة إسلامية وربما لأنه كذلك كان الداعى إلى المؤتمر الإسلامى الوزارى الأول فى كوالالمبور .. ولكن المشكلة كانت فى الحقيقة لديه هو ..

فقد كان معروفاً عن تنكو فى ماليزيا أنه يحب شراباً معيناً يتناوله يومياً وتنسب إليه تركيبته : ويعرف باسم ب / جيه B.G (وهى اختصار لكلمتى براندى / جنجر إل) فكيف سيتوفر له هذا الشراب فى جدة التى اختيرت مقراً لسكرتارية المؤتمر الإسلامى ..

ومن الطريف أن تنكو عبد الرحمن كان يفتتح معرضاً أقامته جامعة ماليزيا شاركت فيه عدة سفارات بمعروضات عن بلادها .. وعندما أتى عند الجناح المصرى توقف أمام صورة مكبرة لبلاج ستانلى بالإسكندرية .. ومصمص شفتيه قائلاً : أنا لا أفهم لماذا لم يختاروا الإسكندرية لتكون مقراً لسكرتارية المؤتمر الإسلامى ..!؟؟

وضحكنا جميعاً للملاحظة ..

ولكن الذين زاروا تنكو عبد الرحمن فى جدة بعد ذلك كانوا يقولون مازحين إنه قد تأقلم مع الوضع ودبر أموره .. وتغلب

على الحظر المفروض عليه بأن خصص إحدى حجرات منزله الفسيح هناك فأقام فيها معملاً للتقطير بحيث أصبح ينتج احتياجاته من مشروبه المفضل B.G والعهدة هنا على الراوى ..!!

ماليزيا ..

٦- الناس.. والثعابين.. والجنة..!

ماذا يمكن أن يحدث فى أحد بيوتنا المصرية إذا ما فوجئت الأسرة وهى مجتمعة حول الشاشة الصغيرة فى إحدى الأمسيات بزائر غريب يجرى على الحائط ثم يتوقف متربصاً لينقض على باعوضة فيلتهمها ..

طبعاً يمكن أن نتصور هرجاً ومرجاً يسودان المكان .. وسوف يصيح أحد الحاضرين محذراً .. برص .. برص ..! وسيصيح آخر.. « هات المقشة ..! وسوف تقفز بعض الحاضرات وهن يصرخن إلى أقرب فوتيه طلباً للأمان .. وسيتظاهر بعض الرجال بعدم الاهتمام .. وسيقول أحدهم : « أنا ما يهمنيش البرص .. بس هو الواحد جسمه يقشعر منه ..! » ويهرع بعض الشباب فى نخوة وشهامة لمحاصرة البرص المسكين .. وينهالون عليه بأى شىء فيخر صريعاً وينفصل ذيله ويتلوى .. ويتطوع أحدهم فيحمل البرص القتيل وأشلاءه إلى خارج البيت فى حرص شديد.

ويهدأ الجو المتكهرب .. وتنزل السيدات والفتيات من فوق أعلى الفوتييات .. وتبدأ التعليقات ..

تقول ربة البيت : لا بد أن أحداً ترك الملح مكشوفاً فى المطبخ..! ويقول آخر : هذا اللعين لو شم طعاماً أو لمس أحداً، فإنه يمكنه أن يصيبه على الفور بمرض « البَرَص » ..!! ويعلق طبيب من أفراد العائلة مصححاً « يا جماعة بطلوا الخرافات دى إن المرض الذى

نقول عنه البَرَص (بفتح الباء والزاء) هو اسم مأخوذ عن الإنجليزية « لا براص » وليس له علاقة بالبرص من قريب أو بعيد ذلك الحيوان الأليف المسالم الذى ينتمى إلى الزواحف والمعروف بالإنجليزية باسم « ليزار » ولا يفعل شيئاً سوى أنه يتغذى على الناموس والحشرات الصغيرة .

■ ■ ■

كل ذلك إذا كان الزائر الغريب برصاً صغيراً ضعيفاً يسعى لالتقاط باعوضة .. ولكن كيف يكون الحال لو كان الزائر الغريب الذى يفاجىء الأسرة هو ثعبان كبير خطير وسام ..!! ؟ أو حتى .. مجرد ثعبان صغير .. من أى نوع ..

هذه الحالة من الصعب تصورها إلا فى بعض الأماكن غير المطروقة كبيت مهجور فى الريف أو فى ضاحية بعيدة .. أما إذا تجرأ الثعبان وظهر فى حديقة بيت بالمدينة أو فى إحدى ردهاته .. فلا شك أنها ستكون مفاجأة غير سارة وغير متوقعة .. وإذا ما اختبأ فى ركن من الأركان فإنها إذن كارثة .. ولن يكون هناك مفر من الاستعانة بأحد « الرفاعية » المشهورين .. لاستدعاء الثعبان اللعين .. وحمله بعيداً عن العين ..!!

■ ■ ■

وكل ذلك هو ما نتصور حدوثه فى بيئتنا المصرية .. ولكن الأمر ليس بالضرورة كذلك فى أماكن أخرى من العالم ..

وقد أتيح لى خلال إقامتى فى كوالالمبور عاصمة ماليزيا فى الفترة من ١٩٦٨ – ١٩٧٢ ، أن أعايش عدداً من الأجناس الذين يتكون منهم الشعب الماليزى وأهمها : الجنس الملاوى (حوالى ٤٨٪) الجنس الصينى (حوالى ٣٨٪) الجنس الهندى (حوالى ١٠٪) .

وكل منهم يمثل ثقافة وتاريخاً وتقاليد مختلفة .

وكنت وقتها سكرتيرا ثانيا للسفارة .. وأقطن فى فيلا بضاحية سكنية جميلة تسمى « بيتالنج جايا » تحيط بها غابات المطاط التى تشتهر بها ماليزيا .. وكنت محاطاً بالجنسيات الثلاث التى يتكون منها شعب ماليزيا فى مواجهتى « داتو محمد عصرى» رئيس وزراء ولاية كلانتن بشمال ماليزيا .. وإلى يمينى المستر « ب. نيلة» وهو موظف كبير بالحكومة هندى الأصل .. أما الفيلا الملاصقة من اليسار، فكان يقطنها المستر « لى » وهو رجل أعمال صينى الأصل .

وكان أول اتصال لى بهذه الموضوعات من خلال المستر « نيلة» الذى حضر ذات مساء وزوجته « يردان » زيارتنا ، وجلسنا فى «تراس » خارج غرفة الاستقبال يطل على الحديقة .. وتجاذبنا أطراف أحاديث مختلفة .. ثم بدأ المستر « نيلة » الذى علمنا منه فيما بعد أن اسمه يعنى اللون الأزرق الداكن وهو لا يختلف كثيراً عن استخدام الاسم فى مصر منذ الفراعنة ..! بدأ يحكى قصة صديق له سافر بسيارته إلى الجنوب وهى منطقة جبلية وعرة .. وحدث أن اعترض طريقه ثعبان كبير ، فلم يعبأ به وداس عليه وشطره نصفين .. ومضى إلى وجهته حيث قضى طوال اليوم لإنجاز أعماله ثم قفل عائداً فى المساء من نفس الطريق .. وما أن بلغ النقطة التى صادف فيها الثعبان فى الصباح حتى اختل توازن سيارته وانقلبت به من فوق الجبل وأصيب إصابات بالغة وهو يعالج بالمستشفى فى العناية المركزة .. ولم يجد الناس الذين تجمعوا أثراً للثعبان الذى اصطدم به فى الصباح ..!!

وقال مستر « نيلة » مفسراً ذلك أن الثعبان الذى قتل فى الصباح لابد قد تقمص روحاً شريرة تربصت بصديقه وحاولت

الفتك به فى نفس المكان خلال عودته ..!!

لاحظنا أن المستر « نيلة » كان يتوقف عن الحديث الحينة والأخرى لينقر بأصابعه نقرات ثلاث على المائدة الصغيرة حيث يجلس .. فلما استفسرت زوجتى منه عن سبب ذلك ، أشار مبتسماً إلى أعلى المكان الذى تجلس فيه ونظرنا جميعاً فوجدنا برصاً كبيراً ملتصقاً بالسقف .. وفزعت زوجتى من مجلسها منتفضة وقمت أنا أبحث عن شيء أقتل به البرص .. ولكن مستر « نيلة » أبدى دهشته لرد فعلنا وطلب منا الزام الهدوء قائلاً إن هذا اليحوان الأليف هو صديق للإنسان .. وكان طوال حديثه معنا يؤمن على كلامه ويصدق عليه بالصوت الذى يصدر عنه .. ولذلك كان مستر « نيلة » يقطع حديثه ليقدم له واجب الشكر بتلك النقرات ..!! واستغرب المستر « نيلة » أن تبادر إلى ذهننا فكرة قتل « البرص » مستنكراً قتل أى كائن حى له روح ووصف ذلك بأنه أثم لا ينبغى التورط فيه ..!!

بيد أن الأيام أتاحت لنا الفرصة لنتعرض إلى نظرة مختلفة لهذه الأمور .. ربما تقع منها على وجه نقيضه تماماً ..

فقد لاحظنا بعد ظهر أحد أيام الأسبوع حركة غير عادية فى حديقة جارنا الصينى مستر « لى » .

وباستطلاع الأمر وجدنا الرجل وزوجته وأولاده يوقدون ناراً ويحملون بعض الأوانى المعدنية الكبيرة .

وبالاقتراب من سور الحديقة وجدنا المستر « لى » يحمل ثعباناً كبيراً وقد قطع رأسه وسلخ جلده ، ثم بدأ يقطعه أجزاء صغيرة ويلقى بها فى حلة الماء المغلى .. وكان بادى السعادة وهو يروى لنا أنهم وجدوا ذلك الصيد الثمين فى الحديقة ونجحوا فى محاصرته وقتله وأن جلده من النوع الثمين ولذلك حرصوا على

سلخه بدقة حتى لا يفقد قيمته .. أما الباقى فرزق هبط عليهم للعشاء .. ودعونا أن نشاركهم تلك الوجبة الطازجة الشهية التى قد لا تتكرر كثيراً .. ولكننا اعتذرنا بطبيعة الحال ..!

وقد علمنا بعد ذلك إن الصينى يأكل كلى شى حىّ .. ابتداء من الحشرات مثل صراصير الحمامات ..!! التى تجدها معبأة فى برطمانات لدى البقالين كنوع من « الديليكاتس » ..! إلى الزواحف والطيور ثم الحيوانات باختلاف أنواعها لا يستثنى منها الكلاب والقطط ..!

ومن الطرائف التى حدثت فى ماليزيا أن سفيرنا هناك كان يربى فى بيته كلبة جميلة بيضاء .. وحدث أن أنجبت الكلبة أربعة كلاب صغيرة جميلة الشكل ، وبعد أن مضى عليها فى البيت حوالى شهر سأل الطباخ (الصينى الأصل) السفير عما إذا كان يستغنى عن الكلاب الصغيرة، فأجاب السفير بالإيجاب .. ومرت على هذه الواقعة أسابيع ثم تذكر السفير الكلاب الصغيرة فسأل الطباخ عن حالها وما إذا كان يعتنى بها .. فنظر إليه الطباخ فى استغراب ممتزج بالعتاب قائلاً : « أى كلاب تلك التى تسألنى عنها.. إننى لم أتصرف فيها بل قدمتها لكم فى حفل الغداء الذى أقمته منذ أسبوعين لوفد رجال الأعمال المصريين عندك فى البيت وقد أطريتم يومها على لحمها .!! » .

وأصيب السفير بحالة من القرف استمرت معه عدة شهور قبل أن يستطيع تناول لحوم مرة أخرى .. !!

■ ■ ■

ونعود مرة ثانية إلى المستر « نيلة » .. فقد رجعت إلى بيتى ذات يوم بعد انتهاء العمل بالسفارة لأجد حركة غير عادية فى بيت الجار الهندى حيث فُتح باب الاستقبال المطل على الحديقة

على مصراعيه .. وكانت زوجته وبناته يحملون أوانى مليئة بالماء يرشونه على الأرض فى غرفة الاستقبال ..

وحسبت أول الأمر أن ذلك نوع من الطقوس الدينية .. ولكن ما لبثت أن عرفت الحقيقة عندما خرج من باب غرفة الاستقبال ثعبان كبير يزيد طوله على ثلاثة أمتار وقد خرج إلى جانبيه كل من مستر « نيلة » وابنه الشاب وكل منهما يحمل عصا غليظة يضرب بها على الأرض إلى جوار الثعبان الذى أخذ يتحرك فى زهو متجهاً إلى الباب الخارجى للحديقة .. ثم تابع الموكب مسيرته وأنا أراقبه فى دهشة حتى وصل إلى غابة المطاط المقابلة لبيتنا .. وقفل مستر « نيلة » وابنه عائدين .. وبادرت مستر « نيلة » بقولى وأنا أحاول أن أجاريه فى أفكاره .. إننى فهمت .. طبعاً أنت لم ترد أن تقتل الثعبان فى البيت حتى لا تنتقم روحه فى نفس المكان فأخذته إلى الغابة لتقتله هناك بعيداً عن البيت .. ولكن مستر « نيلة » نظر إلىّ فى استنكار لم يخطر ببالى ذلك الشيء .. وقال هامساً وكأنه يخشى أن يسمعنا أحد ..

– هذا غير معقول الذى تفكر فيه .. أنا أقتل هذا الضيف ..!

أنت تعلم أن هذا الثعبان ما هو إلا روح تقمصت جسده .. وهى على الأرجح روح « حماتى » وقد أتت للاطمئنان على ابنتها .. وقد اصطحبناها بعد انتهاء الزيارة معززة مكرمة إلى الغابة إلى حيث تنتمى .. إنها سيدة طيبة ولابد أنها قادمة من الجنة لتوها..!!

وهززت رأسى معتذراً عن إساءة الظن التى ما كان يجب أن تراودنى ..

■ ■ ■

وعندما رويت « لداتو عصرى » رئيس وزراء ولاية كلانتى الإسلامية (وهو جارى فى الفيلا المقابلة) عن كل ذلك وسألته

عما إذا كانت لديهم كملاويين معاملة خاصة للثعابين .. هز رأسه قائلاً : هذه معتقدات لا نعرفها كمسلمين .. ولا نؤمن بها ونحن نتعامل مع الثعبان كأي شيء خطر على حياتنا .. إذا صادفنا .. نقضي عليه في الحال ونلقي به بعيداً .. تماماً مثلما تفعلون في مصر .. وإن كانت للثعابين طبعاً فوائد طبية واقتصادية تستغلها الدولة ..

ثعابين الماء ..!

وهناك أنواع كثيرة من الثعابين في ماليزيا .. تتناسب مع الطبيعة الغنية للغاية في تلك البلاد ما بها من هضاب وجبال وغابات وخضرة متصلة على مدى العام .. وليس بالضرورة كل ثعبان سام .. بل يقال إن معظم الثعابين الضخمة غير سامة ، ولكنها تفتك بفريستها بواسطة قوة عضلاتها التي تعتصر الفريسة ثم تبلعها ..

وفي حديقة الحيوان بماليزيا هناك أكثر من جناح للثعابين حيث تتوافر بها أنواع غريبة من بينها نوع صغير يعيش فوق الشجر ، وقد أعطاه الخالق عز وجل الحماية الطبيعية ، فهو يأخذ لون فرع الشجرة التي يعيش فوقها .. فإذا كانت خضراء فلونه أخضر وإذا كانت بنية اللون فلونه بني كذلك ..

ولكن الغريب أن ثعبان الشجرة هذا يأخذ كذلك شكل فرع الشجرة بما فيها من عقل وتعرجات حادة أحياناً بحيث لا يمكن بحال تمييزه عن فرع الشجرة ، وبهذه الوسيلة يستطيع ثعبان الشجرة أن ينقض أو يتربص بفريسته ، وأن يهرب من أعدائه ..!!

ولكن هناك ثعابين تعيش في الماء في بعض شواطىء ماليزيا وهي ليست من نوع ثعبان البحر المعروف لدى الصيادين والذي يؤكل وله عشاقه لطعمه اللذيذ .. وإنما هي ثعابين سوداء رفيعة

لا يزيد طول الواحد منها على خمسين سنتيمتراً ، ومع ذلك فإن سمها شديد الأثر .. سريع المفعول .. إذا لم يدرك المصاب به فى خلال ساعة واحدة من الزمان فإنه يلقى حتفه فى الحال ..!! وعادة ما تحتفظ المستشفيات العامة فى تلك المناطق بالأمصال المضادة لسم ثعبان الماء ..

معبد الثعابين :

ولكن أغرب ما شاهدت من الثعابين هو تلك الثعابين المقدسة .. فى مدينة بنيانج الساحلية شمال ماليزيا .. حيث يوجد معبد خاص بالثعابين المقدسة .. تنطلق الثعابين فى كل أرجائه وفوق الشجيرات المزروعة داخل المعبد وعلى أرضه .. وهى ثعابين مقدسة لا تؤذى .. ولكنها على العكس طريق المؤمنين بها إلى الجنة ..!! ومع أن بعض هذه الثعابين قد تكون سامة ومفترسة .. إلا أنها عادة لا تؤذى المصلين فى المعبد أو زواره من السياح وهم كثيرون .. ويقال إن الأبخرة التى يطلقها على نحو متصل كهنة المعبد فى أرجائه تضفى عليه جواً غامضاً يناسب العبادة .. ويقوم فى الوقت نفسه بعملية تخدير للآلهة .. الثعابين المقدسة ..!!

أنا .. والثعابين .. والميكى ماوس ..!

ذات مرة كنت مسافراً بالسيارة من كوالالمبور إلى مدينة بهانج التى تقع على الساحل الشرقى لماليزيا وتطل على بحر الصين ..

وكنت أتوقف فى الطريق وأترجل من السيارة لتأمل تلك الغابات الطبيعية الرائعة الجميلة الغنية بأنواع متعددة من النباتات.. وأذكر أننى كنت أقف على جانب الطريق وهو طريق يعلو هضبة ضخمة .. وأمكننى أن أنظر من جانب الطريق المطل على هوة سحيقة .. وكانت أعالى الأشجار الضخمة الباسقة تبدو

تحت نظرى وأقدامى . والناظر من ذلك المكان لا يمكن أن يشبع من النظر والتأمل .. وسوف يجد عشرات وربما المئات من أنواع الأشجار المختلفة والنباتات المتسلقة وأشجار الموز الطبيعية التى لم يزرعها أحد .. وشجر جوز الهند وأنواع من النباتات الضخمة الأوراق المختلفة الألوان .. وتتنقل بينها الطيور المختلفة تغنى أو تتناجى ومنها من يصيح منادياً أو مستغيثاً .. وتجرى بينها الحيوانات المسالمة أو المفترسة .. أنها لوحة غنية بالأشكال والألوان المتجددة من صنع الخالق العظيم سبحانه وتعالى .. ولطالما اجتهد الفنانون وحاولوا نقل انفعالاتهم بالطبيعة الفنية الساحرة ولكن لا شىء يعادل النظرة بالعين المباشرة إليها ..

وبينما كنت أقود السيارة فى ذلك الطريق .. رأيت مشهداً طريفاً حيث قطع الطريق أمامى فأر كبير قادم من أحد جانبى الطريق إلى الجانب الآخر .. وكان يجرى فى أثره ثعبان كبير يكاد ينقض عليه ، وأمكن للفأر أن يفلت من السيارة ولكن الثعبان وقع تحت عجلاتها وقضى عليه فى الحال .. وهدأت من سرعتى ونظرت فى المرآة الجانبية فرأيت الفأر يتوقف عند جانب الطريق ويلتفت خلفه ليرى الثعبان الصريع ولسان حاله يقول لى « شكراً لإنقاذ حياتى » .. ويقول للثعبان .. « لقيت مصيرك المحتوم يا ملعون .. !» .

ومضيت فى طريقى فى أرض الله الرحبة ..!

دمشق ..

٧- شاهد على الغارة الإسرائيلية على حى «أبو رمانة» بدمشق (أكتوبر ١٩٧٣)

فى سبتمبر ١٩٧٣ كنت سكرتيراً أول بإدارة شئون فلسطين.. وكلفنى مدير الإدارة آنذاك (السفير عيسى سراج الدين).. بحضور مؤتمر الإذاعات العربية الموجهة للأراضى المحتلة الذى كان مقرراً أن يعقد فى العاصمة السورية دمشق فى الفترة من ٨ ـ ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ .. وحجزت على الطائرة المصرية التى تغادر القاهرة فى التاسعة من مساء الجمعة ٥ أكتوبر ١٩٧٣ .. حيث كان من المقرر حضور مشاورات تسبق المؤتمر إعداداً له وضماناً لنجاحه.

وفيما كانت أسرتى تلتف حولى بمنزلى بالهرم لتوديعى.. تلقيت اتصالاً من شركة الطيران يفيد أن المطار مغلق وأن الرحلة ألغيت وأنهم سيعاودون الاتصال فى حالة تحديد موعد آخر لرحلة دمشق.

وبدأ الحاضرون يتكهنون بما عساه أن يكون السبب فى إغلاق المطار.. فقال أحدهم أنه سوء الأحوال الجوية.. وقال آخر ربما هو عطل فى الطائرة.. وقال ثالث ربما ينقلون أغراضاً حربية.. وقال رابع كنوع من الدعابة .. و.. ربما تكون الحرب قد بدأت..!! ولكن جميع التكهنات تراجعت عندما دق جرس التليفون فى الواحدة صباحاً.. وكان المتحدث من شركة مصر للطيران يخبرنا بأن الطائرة ستغادر القاهرة فى الحادية عشرة من صباح اليوم التالى

٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣ .. كان معى على نفس الطائرة ولحضور ذلك المؤتمر كل من المرحوم الأستاذ/ جابر الشال المذيع الكبير فى صوت العرب.. والذى عرف بصوته المميز كل صباح يقدم للتلاوة القرآنية.. فى برنامج : « فى نور التلاوة» وكانت تربطنى به صداقة حيث دعانى أكثر من مرة للتحدث فى برامج مختلفة فى «صوت العرب».. و«وإذاعة فلسطين».. وكان جابر الشال يمثل الإذاعة المصرية فى المؤتمر.

وقدم إلىّ الرجل الجالس إلى جواره واسمه «صالح سرية» وكان يحضر عن الجامعة العربية على ما أذكر.. وقال الرجل إن أكثر ما يهمه فى هذه الرحلة أنها ستكون فرصة له لزيارة أمّه العراقية المقيمة إقامة دائمة فى دمشق.. ولم يكن يخطر ببالى أن ذلك الاسم سوف يتردد بعد ذلك لسنوات على نطاق واسع فى الصحف.. باعتباره المتهم الأول فى قضية الثانوية العسكرية.. وأن يدان وينفذ فيه حكم الإعدام.. !!

ما أخذ بالقوة .. !

وصلنا إلى مطار دمشق الدولى وكان الدخول إلى سوريا للمصريين بالبطاقة الشخصية فقط.. وكان هناك من إذاعة دمشق وسكرتارية المؤتمر مَنْ ينتظر جابر الشال ومرافقه.. واتفقنا على اللقاء فى الفندق.. حيث فضلت أن انتظر الزميل الذى توقعت أن يأتى من السفارة لمقابلتى.. ولكن يبدو أن الخلل الذى حدث فى مواعيد الطائرات أحدث لبساً.. ولذلك فبعد أن انتظرت بضع دقائق ناديت سيارة تاكسى وطلبت منه أن يقلنى إلى السفارة المصرية.. وقد رحب السائق بذلك فى حماس.. مشيداً بوحدة الشعبين المصرى والسورى.. وأنها وحدة « ما يغلبها غلاب.. ! » وأنه سعيد

أن القيادة اليوم فى البلدين.. الأسد والسادات.. على تفاهم وتنسيق تامين.

سألنى عن سبب حضورى قلت :

– جئت لحضور مؤتمر لدول المواجهة العربية عن الإعلام.. ولكننى لا أكتمك أن زيارة عاصمتكم «دمشق» عاصمة الأمويين.. وقلب العروبة النابض.. هى أمل طالما راودنى.. حيث إن هذه أول مرة أتى فيها إلى سوريا العزيزة.

ولم يضيع الرجل الوقت.. وإنما دخل فى السياسة مباشرة وقال:

– أنت دبلوماسى طبعاً .. فما رأيك فى الموقف..؟

وهل تعتقد أن هناك حرباً..؟

قلت :

– طبعاً .. فالموقف لا يبدو أنه سيتحرك بغيرها.

وأعتقد أن الحرب فى النهاية لا مفر منها.. لا يبدو أن هناك حلاً آخر فى الأفق.. فالكبار يسوفون.. وهم فى الواقع لديهم أولويات أخرى.

قال : إننى من نفس الرأى.

ورحمه الله «جمال».. فما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة..! وأنتم فى مصر تستعدون.. ونحن هنا فى سوريا كذلك.. وأنا أملى أن أعيش حتى أرى أراضينا تحررت .. ادع لنا يا أستاذ..!

قلت بتلقائية :

– اطمئن .. فالحرب قادمة لا محالة.. وندعو الله أن يطيل فى أعمارنا حتى نراها..!

وقال الرجل :

– هل زرت الشام من قبل ..؟

قلت :

- نعم سبق لى أن زرت لبنان مرتين.. أما سوريا فتلك هى أول مرة لى أزورها.. ضحك السائق وأفهمنى أن «الشام» هو اللقب المستخدم هناك للتعبير عن «دمشق» تماماً كما نعنى عندنا «القاهرة» .. عندما نقول «مصر»..!

وبدأ الرجل يصف لى معالم المدينة.. إلى أن وصلنا إلى منطقة فى الأطراف..

فقال السائق :

- هذا حى « أبو رمانة » وتقع فيه السفارة المصرية وبعض السفارات الأخرى.. وهو من أجمل أحياء « الشام » .

قنبلة على مطار دمشق .. !

ووصلنا إلى السفارة .. وحاول الرجل بشدة ألا يتقاضى أجره ولكننى تمسكت من جانبى قائلاً إننى فى مهمة رسمية وأن الحكومة هى التى ستدفع فى النهاية.

وكانت الساعة الواحدة والنصف وخمس دقائق.. عندما كنت أجلس أمام السفير/ ممدوح جبة فى مكتبه.. أوضح له مهمتى ونتشاور فى الأمر وأبدى استعداده لتقديم أى عون قد احتاج إليه من السفارة خلال المؤتمر.. ثم تركته إلى مكتب مستشار السفارة وكان الزميل «محمود جمعة» حيث رحب بى.. وطلب لى على سبيل الاستثناء فنجاناً من القهوة المصرية فهو يعرف أننى على سفر.. وقال إننى سأتناول طعام الإفطار معهم فى بيته المجاور مباشرة للسفارة.

ولم أكد أبدأ فى تناول القهوة حتى سمعنا صوت انفجار قوى ولكنه بعيد.. ثم تكرر الصوت حيث صار واضحاً لنا أنه صوت قنابل.. وقال محمود جمعة إن الصوت آت من المطار.

هل تكون المعركة قد بدأت..؟!

البيان الأول للعبور..!

وكان السفير قد غادر منذ لحظات مكتبه وبدأ محمود جمعة في تقصى الأخبار عن طريق التليفون.. عندما دخل موظف المحطة اللاسلكية ليبلغنا أنه علم عن طريق زميله بالقاهرة أن القوات المصرية قد عبرت القناة.. وأن هناك بياناً صدر فى هذا الشأن يتحدث عن عدوان إسرائيلى أعقبه تحرك للقوات المصرية على أكثر من محور.. وأن طلائع قواتنا تقف على الضفة الشرقية من القناة .. وأدرنا أجهزة الراديو.. وإن هى إلا لحظة حتى كان صوت المذيع المصرى يكرر البيان الذى صدر عن القوات المسلحة المصرية.. ثم كان المذيع فى محطة إذاعة دمشق يذيع بياناً مماثلاً عن المعارك الباسلة التى بدأت فى الجولان.. وعلى شاطىء قناة السويس لاسترداد الأرض المغتصبة..!

وكانت فرحتنا لا يمكن وصفها.. ولكنها كانت مع عظمتها فرحة مشوبة بالحذر..! فلقد كانت تجربة النكسة فى عام ١٩٦٧ لا تزال عالقة بأذهاننا جميعاً.. ولعل مما طمأننا بعض الشىء.. أن لهجة الإعلام هذه المرة كانت هادئة.. ولا أبالغ إذا ما قلت متحفظة.. وقلنا لبعضنا البعض.. إذا مضت ثمان وأربعون ساعة.. ولم يحدث تراجع.. فقد نجحنا..! وقال آخرون : بل ٧٢ ساعة..! وجلسنا على مائدة الإفطار فى بيت محمود جمعة حيث كانت زوجته الفاضلة قد أعدت لنا إفطاراً شهياً[1].. وطبيعى أن الإفطار كان على ضوء شموع خافتة مع إغلاق النوافذ.. فقد كانت دمشق

---

(١) وقد علمت بعد كتابة هذه الصفحات أن الله سبحانه وتعالى قد اختارها إلى جواره فى الأسبوع الأخير من أغسطس ١٩٩٧ خلال وجودى خارج القاهرة فقرأت الفاتحة لها ودعوت لها بالرحمة الواسعة وفسيح الجنات فقد كانت سيدة فاضلة كريمة وقفت إلى جوار زوجها فى كل معارك الحياة.

كلها فى ظلام دامس.. وكنا كل لحظة نتوقف عن الطعام حيث تصل إلى آذاننا بعض أصوات القنابل البعيدة.. أو للاستماع إلى الأخبار العالمية.. وكانت إذاعة القاهرة أسبق فى إذاعة تفاصيل المعارك بدقة بحيث أصبحت المحطات العالمية متأخرة عن إذاعتنا..! وطالعتنا فى التليفزيون صورة ديان وهو جالس وسط بعض الوزراء وأعوانه من العسكريين وقد أنكفأ رأسه بين يديه.. فى ذهول عميق مما يحدث حوله..!!

وفى اليوم التالى توجهت ومعى جابر الشال إلى السفارة المصرية.. وبطبيعة الحال كان منظمو المؤتمر قد اتصلوا بالسفارة وأبلغوهم بتأجيل المؤتمر إلى أجل غير مسمى.

وعرضت خدماتى على السفارة طوال فترة وجودى فى دمشق.. وكان عمل السفارة مكثفاً فى تلك الأثناء فرحبوا بذلك.

الكرم السورى

وسألنى جابر الشال عما إذا لم أكن أمانع فى زيارة صديقه المنظم للمؤتمر فى مكتبه.. ولم أمانع بطبيعة الحال.. وأصر الرجل بعد ذلك على أن يصحبنا إلى بيته لتناول الإفطار مع أسرته.. وعبثا حاولنا إقناعه بأن الظروف غير مناسبة.. ولكنه كان يزيد إصراراً قائلاً : إن هذه الظروف بالذات ادعى لأن نتجمع معاً.. وقد سعدنا فعلاً بالجلسة العائلية والإفطار الشهى.. والكرم الواضح للأسرة السورية حيث أصروا على أن نتذوق من كل الأطباق العديدة التى صفت على المائدة وكلها أكلات وطنية سورية أو شامية بالمعنى الأوسع.

وبعد آذان العشاء سرت مع «جابر الشال» على الأقدام نحو

الفندق .. فى شارع عريض رئيسى فى المدينة.. وكان الظلام دامساً.. وبدت دمشق وكأنها خندق كبير .. وكنا نسمع بين الحين والحين صفارات الإنذار.. ثم أصوات القنابل.. ونرى فى الأفق البعيد توهج نيران الصواريخ.

وكان الليل بارداً .. فأسرعنا الخطى لعلنا نشعر بالدفء.. ولم أكن قد أحضرت معى ملابس ثقيلة حيث كان الجو فى مصر مازال دافئاً عندما غادرتها.

عشر دقائق حاسمة .. !

وفى صباح اليوم التالى قررت قبل أن أذهب إلى السفارة أن اشترى «بلوفرا» لأرتديه فى المساء.. ونزلت إلى سوق قريب من الفندق حيث اشتريت واحداً.. وكنت اعتزم أن أتوجه بعد ذلك مباشرة إلى السفارة وهى على مسافة عشر دقائق بالسيارة.. ولكننى عدلت عن الفكرة حيث فضلت أن أعرج أولاً على الفندق لأترك ما أحمله.. واستقل بعد ذلك سيارة تاكسى إلى السفارة.. ولم أكن أدرى أن ذلك التعديل البسيط فى خط سيرى قد جنبنى خطراً محدقاً قادماً..!! فقد عرجت بالفعل على الفندق حيث تركت الكيس فى الغرفة ثم نزلت إلى الميدان الفسيح أمام الفندق وسرت بضع خطوات بحثاً عن سيارة تاكسى ولكننى لاحظت أن الناس ينظرون إلى السماء.. وأن بعض الناس قد انبطح أرضاً.. فنظرت إلى أعلى فوجدت أربع طائرات محلقات فوق الميدان مباشرة وتقوم بحركات بهلوانية..!

وفهمت على الفور أننى على الأرجح أشاهد معركة جوية فوق رأسى..!

ولم أشـأ أن أنبطح على الأرض كما فعل الناس.. لا عن شجاعة.. ولكن لأنني كنت أتصور أننا إذا ضربنا بالقنابل أو بالرشاشات فلن يجدْ منعها انبطاح أو جرى.. ولإيمانى العميق بأن « العمر واحد.. والرب واحد ».. وصدق الله العظيم : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ .

فوقفت أتابع المعركة الحية.. وصدق حدسى حيث إن طائرتين من الأربع انسحبتا شمالاً وبدأت الصواريخ تتجه نحو الطائرتين الأخريين اللتين تأكدت حينئذ أنهما إسرائيليتان.

الجحيم فوق أبو رمانة

وفجأة اتجهت الطائرتان الإسرائيليتان نحو الغرب فى اتجاه حى أبو رمانة الذى تقع به السفارة.. وبكل خسة.. وحتى تتخلصان من حمولتهما الثقيلة وتتمكنان من الفرار فتحت كل طائرة بطنها لتسقط من كل منهما ثمانى دانات ضخمة.. نزلت أمام عينى فى شكل هرمى يتسع كلما اقتربت من الأرض.. فى نفس اللحظات والمكان الذى كان من المفروض أن أكون فيه لو كنت اتجهت مباشرة إلى السفارة..!

إنه شعور غريب وكئيب أن أشاهد الدانات الست عشرة فى هبوطها البطىء.. وأقف عاجزاً أمامها أن أفعل أى شىء لمنعها.. إلى أن اختفت عن نظرى لثوان معدودة أعقبتها انفجارات هائلة!! وعدد كبير من المبانى ارتفع متناثرا فى الهواء وأحدث غباراً هائلاً.. وألسنة اللهب تصاعدت فى السماء مع سحب من الدخان الكثيف.. وبدأ الناس حولى فى الميدان يصرخون فى سخط .. ثم ضاع صوتهم وسط أصوات صفافير سيارات الشرطة وأجراس عربات

المطافىء والإسعاف من كل مكان تهرع إلى الموقع.. واندفعت بلا وعى فى اتجاه حى أبو رمانة.. ولكن تبين لى أن جميع المنافذ إلى الحى قد أغلقت لإتاحة الفرصة لعمليات الإنقاذ.

فعدت بسرعة إلى الفندق حيث طلبت السفارة بالتليفون ولكنه كان يدق ولا يجيب.. فطلبت بيت الزميل محمود جمعة.. فردت علىَّ زوجته.. وطمأنتنى إلى أن القنابل سقطت قريباً منهم جداً ولكن لم تحدث إصابة مباشرة لا على السفارة ولا على بيتهم.. وأنهم جميعاً بخير والحمد لله فيما عدا أحد موظفى اللاسلكى حيث أصيب بيته وهم الآن يبحثون عن ابنه الصغير بين الأنقاض..! ولا بد أن زوجها الآن يتفقد الموقع ويتابع عمليات الإنقاذ.

وبعد ساعتين كررت المحاولة مرة ثانية.. حيث نزلت وأوقفت سيارة تاكسى يقودها شاب فى مقتبل العمر.. سألته عما إذا كان يقلنى إلى السفارة المصرية..؟

فسألنى هل أنت دبلوماسى؟ فأجبت بالإيجاب فقال فى حماس: إذن اركب.. فأنا أيضاً أريد أن أذهب لأشاهد ما فعله «الأنذال»..! الحمد لله أن الطائرتين الإسرائيليتين قد أسقطتا خارج دمشق بواسطة الصواريخ السورية.. واتجه على الفور إلى حى أبو رمانة قائلاً أمسك بالباسور فى يدك.. واجتزنا الحواجز.. وكان المشهد مروعاً.. بيوت بأكملها منهارة أنقاضاً.. وبيوت متصدعة.. والناس لا يزالون فى الشارع خارج البيوت.. وعلى جانبى الطرق.. جميع السيارات محطمة ومنبعجة وكأنها قطع من الصفيح بسبب شدة الانفجارات وما صاحبها من ضغط شديد للهواء.. وسيارات الإسعاف رائحة وغادية.. وآثار الحرائق مازالت

تشاهد في أماكن متفرقـة.. وصلت إلى السفارة المصرية.. وكانت الأحـوال مطمئنة فـعلاً علـى نحو مـا ذكرت لى حـرم مسـتشـار السفارة.

وفى المساء علمت أن ابن مـوظف اللاسلكى قد عُثـر عليه وأنه بالمستشفى يعالج من رضوض سطحية.

ومن ناحية أخرى أذاعت إسرائيل بـياناً ذكرت فيه أن طائرتين إسـرائيليتـين هاجمـتا أهدافـاً عـسكرية فى دمشق.. وأصـابتهـا بأضرار بالغة وعادت الطائرتان سالمتان إلى قواعدهما..!!

أما وكالات الأنباء الغربية فـأكدت أنباء الغارة على المدنيين فى حى أبو رمانـة.. وسقوط الطائرتـين وقالت إن إسرائيـل «زعمت» أنها كانت على أهداف عسكرية .. وهكذا تبـين لى أن نصر أكتوبر قريب لا مـحالة.. فإعـلام إسرائيل أخذ دور الإعـلام العربى سنة ١٩٦٧.. وحدث العكس بالنسبة لإعلامنا .. !

وسـمعت «نكتـة» أطلقـها أحـد المصريـين الظرفاء فى دمـشق مؤداها أن جولدا مائير طلبت السادات تليفونياً .. وسألته :

– ألو .. ٤٨ – ٥٦ – ٦٧ ؟

فقال لها السادات :

– غلط .. !! النمرة تغيرت : ٦ – ١٠ – ٧٣ .. !

وفعلاً .. لقد كان السادس من أكتوبر ١٩٧٣ نقطة تحول كبرى فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى.

الكويت ..

٨ - الحضارة ليست للبيع ..!

كان ذلك فى الكويت فى يناير ١٩٧٧ .. وكنت مستشارا لسفارتنا هناك وقائما بالأعمال..

ولعل الكثيرين منا يتذكر أحداث ١٧ ، ١٨ يناير ١٩٧٧ فى القاهرة على أثر تناقل الناس أنباء عن استغلال النفوذ والاختلاسات ثم اتخاذ حكومة ممدوح سالم قرارات برفع أسعار بعض المواد الغذائية الرئيسية .. كانت الشرارة التى اندلعت .. فعبر الناس عن استيائهم فى مظاهرات تطورت إلى أعمال تدميرية وتخريبية.. وقد عالج الرئيس الراحل السادات تلك القضية معالجة ظالمة .. حيث أطلق عليها وصفه الشهير « انتفاضة حرامية » .. ثم طرح فى استفتاء عام مشروع قانون يطالب كل مصرى بأن يقدم فى خلال فترة محددة إقرارا يوضح مصادر ثروته وما تمتلكه زوجته من مجوهرات وحلى .. !!

ولمسنا فى موقعنا انزعاج المواطنين المصريين من ذلك المطلب الغريب الذى يكلف كل مصرى أن يثبت أنه شريف !!! ولكننا طمأننا المواطنين إلى أن ذلك قد يكون رد فعل عصبيا مبالغا فيه .. وهذا ما كان بالفعل .. إذ ما لبثت الأمور أن هدأت .. وخفت حدة المطالبة بتنفيذ ذلك القانون حتى تلاشت تقريبا كما هو معروف ...

سخافات بالكاريكاتير

ولكن الذى زاد الطين بلة ووضعنا فى حرج آخر هو أن بعض السخفاء فى بعض الصحف الكويتية .. التى كانت معروفة باتخاذ مواقف غير ودية من مصر .. كان يحلو لهم أن يطلقوا على تلك المظاهرات « ثورة الجياع» .. الأمر الذى كان يحز فى نفس كل

مصرى يعيش ويعمل فى الكويت ... ثم تمادوا فى السخف عندما بدأت بعض الصحف تنشر رسوما كاريكاتيرية بدون تعليق يمثل إحداها مثلا الأهرامات المصرية الثلاثة وقد اختفى أحدها وظهر مكانه خاليا .. ويقف أمامه أحد السياح مندهشا .. ويرمون بذلك إلى أن المصريين أكلوا حجارة الهرم جوعا .. !!

وفى كاريكاتير آخر صورة أبو الهول وقد فقد إحدى يديه وأذنيه وفى ركن من الصورة جمهرة من الصبية المصريين يلتفون حول اليد والأذن المنزوعتين يتخاطف كل منهم قطعة منها ويلتهمها فى شراهة .. !!

ومهما اختلفت والكثيرون مع الأسلوب الذى عالج به الرئيس السادات تلك المشكلة الداخلية .. فلم يكن أى مصرى وطنى فضلا عن ممثل لبلاده ليقبل تلك السخافات المغرضة .

ولم أشأ أن ألجأ إلى الطريق الرسمى بتقديم احتجاج أو لفت نظر للسلطات إلى تلك الممارسات حيث كنت واثقا من أنه رغم تعاطف كثير من الكويتيين رسميين وغير رسميين معنا ومشاعرهم الطيبة تجاهنا .. فإن أى إجراء رسمى يتخذ سوف يكون الرد الطبيعى عليه أن هذه الصحيفة تعبر عن نفسها فى إطار حرية الصحافة وهى بالتالى لا تعبر عن رأى رسمى ..

اجتهادات فى بناء الإنسان العربى

وكبديل لاتخاذ إجراء رسمى فكرت على الفور فى الاتصال بصديق لى هو الكاتب والمفكر المعروف الأستاذ الدكتور / حسين مؤنس رحمه الله لتبادل الرأى معه حول الموضوع .. وكان وقتها أستاذا بكلية الآداب بجامعة الكويت .. وكان له مقال أسبوعى فى صحيفة « القبس » الكويتية التى كانت معروفة بميولها المعتدلة نحونا .. وكان الدكتور / حسين مؤنس قد أتاح لى قبل ذلك

بترتيب خاص مع تلك الصحيفة أن أكتب من وقت لآخر « عامودا» بها تحت عنوان « اجتهادات فى بناء الإنسان العربى » أتناول فيه أحد الموضوعات المتصلة بأبعاد تلك القضية المهمة .. وموضحا فى أكثرها أن الثورة وحدها ليست طريقا للتقدم أو لبناء الإنسان الذى يمكن أن ينهض بأمته العربية ..

واتصلت فعلا بالدكتور مؤنس وقلت له :

– إن مقالى القادم « للقبس » سيكون عنوانه :

« الحضارة ليست للبيع .. ! » وأنه سيتجاوز المساحة التى تخصص لى عادة ..

وتحمس الدكتور مؤنس للموضوع وقال لى :

– اكتب ما تشاء .. اكتب صفحة كاملة .. وتأكد أننى سأعمل على نشرها بالحرف ..

وكان ذلك هو ما حدث بالفعل .. كتبت المقال وبعثت به إليه ونشرته « القبس » على الفور فى صفحة كاملة بعددها الصادر يوم السبت ٩/ ٤/ ١٩٧٧ ..

وفى ذلك المقال .. لم أشر بكلمة واحدة إلى حوادث ١٧، ١٨ يناير ١٩٧٧ فى مصر .. كما لم أشر إلى أى من السخافات التى نشرتها الصحف المذكورة من قول أو رسوم كاريكاتيرية .. وإنما عالجت الموضوع بطريق غير مباشر من خلال اجتهاداتى فى بناء الإنسان العربى ..

طفت بالقارىء فى جولة طويلة .. طويلة .. وصغت المقال فى قالب حوار مع صديق لى بدأه الصديق بقوله :

– غريب ذلك العالم الذى نعيشه اليوم .. !

المدنية فى أوجها ..

والتقدم العلمى والتكنولوجى بلغا شأوا مذهلا ...

والإنسان داس بكلتا قدميه على القمر .. !

ومع ذلك .. تجد فى الوقت نفسه ملاحظة تستحق التأمل وهى ظهور ميل نحو المظاهر « الكلاسيكية » .. وحنين غريب إلى القديم ..

ويقول صاحبى مستطردا :

– ... ولعل مما يزيد فى غرابة هذه الظاهرة أن الشباب – وليس الشيوخ – هو الذى يلعب الدور الأول فيها .. بل إن الشباب يذهب فى ذلك إلى حد المبالغة .. فما حياة « الهيبز » ومَنْ على شاكلتهم إلا هروبا من الواقع الجديد .. إلى البدائية الأولى فى أزمنتها الغابرة .. !

الأسمال البالية ...

والشعر الأشعث الأغبر ...

واللحى المرسلة .. !

أليست هذه ظاهرة محيرة .. !! ؟

وكيف لعقارب الزمان أن تدور إلى الوراء ... ؟؟

أو لم يعد لذلك الجيل فى هذا العالم الزاخر بكل معالم المدنية وصورها من رمز يعنيه ويحرص عليه ويعتز به .. فراح يفتش فى ماضى الزمان .. وينبش فى سالف العصر والأوان ، بحثا عن شىء يلجأ إليه ... !! ؟

على عربة « كارو » ..!

قلت لصاحبى وأنا ابتسم :

– أنت ـ فى حديثك هذا ـ تذكرنى بقريب لى من الفيوم اسمه حمدى .. رقيق الطباع، مرهف الحس، شاعر وأديب بطبيعته، وكانت لديه سيارة صغيرة اعتاد أن يطلق عليها من كثرة اعتزازه بها لقب « عزيزة » .. ! وكان يستخدمها أحيانا فى التنقل من

القاهرة إلى بلدتنا « اطسا » .. وهي مسافة تربو على المائة كيلومتر ...

ويروى حمدى أنه كان عائدا ذات مرة « بعزيزته » على ذلك الطريق.. وقد أطلق لها العنان فراحت تنهب الأرض نهباً.. وكان يشعر بالزهو وهي تحمله كالسهم المارق بين الناس المترجلين في الطريق.. وعربات « الكارو» التي تجرها الدواب .. وفجأة، وفي منتصف الطريق.. أصاب «عزيزة» عطب طارىء.. ووجد حمدى نفسه واقفاً إلى جوارها ـ عاجزاً ـ في عرض الطريق.. وقد أعيته كل حيلة لإصلاحها..! ومر به فلاح سعيد يركب فوق عربة «كارو» يجرها حمار..! وصعب حال أخينا على الرجل.. فعرض عليه أن يركب معه إلى أقرب مكان..

وأخذت العربة «الكارو» تتهادى على الطريق لا تسابق الريح ولا المركبات الأخرى..! بل إن فكرة «التسابق» هذه لم تدر على الإطلاق بخلد صاحبها الذى بدأ يترنم بأغنية ريفية حلوة تروى قصة فتاة جميلة، تنتظر حبيبها الشاب، وتعد له الفطيرة الساخنة.. وهو قد يتأخر في الحقل، وقد يشغله العمل المرهق لفترة، ولكنه في نهاية اليوم عائد لا محالة، وإذا طال غيابه، فإنها على أية حال ستذهب إليه بالفطيرة.. فيقتسمانها سويا، ويقفلان عائدين على شط الترعة في ضوء القمر.. يداعبهما خياله على صفحة المياه الفضية..!!

وعلى الأنغام الهادئة..

والهزات الرتيبة للعربة..

بدأت أعصاب حمدى في الارتخاء.. ووجد نفسه سابحاً ـ على مدى ثلاث ساعات متواصلة ـ في تأملات بعيدة وعميقة ..!

ذلك السباق الرهيب.. على صهوة المدنية الحديثة.. إلى أين..؟

وما هو مصير الإنسان ـ تبت يداه ـ فى كل ما فعل .. ؟ فى التعمير والتدمير على حد سواء..؟!

لقد أصبحت المشاكل متشعبة متشابكة.. والحياة معقدة وصعبة بمثل ما يسودها اليوم من أجهزة ميكانيكية والكترونية بالغة التعقيد.

وأصبح فهم الإنسان العادى شبه معطل وعاجز أمام الحاسبات والعقول الصناعية التى ابتكرها هو بعقله البشرى ذات يوم..!!

ولم يعد غريباً أن يصير الزمان بغير «بركة»..! لأن الوقت ـ من فرط ما أصبح من الممكن أن ينجز فيه ـ صار وقتاً لا يسمن ولا يشبع من جوع.

وبات الإنسان غير قانع بساعات يومه.. أو بأيام عمره.. وامتلأت عيادات الطب النفسى.

وانتشرت ـ ولا عجب ـ أقراص التهدئة والنوم.. وبلابيع التخدير.. ثم عقارات الهلوسة..!

ولم يعد مستغرباً أيضاً أن نجد إنسان اليوم يحاول أن يهرب من نفسه.. ومن يومه.. بل ومن غده.. ويبحث عن ماضيه ليجنح إليه.. ويختبىء بين جوانبه.

تسقط المدنية .. !

وتناهى إلى مسامع «حمدى» صوت الفلاح السعيد يعلن عن الوصول إلى المكان المنشود.. وأفاق من «شطحته» الفكرية.. أو هو لم يفق منها تماماً إذ أنها ظلت تلاحقه وتلح عليه حتى انكب على نفسه يترجم زفراته وهمومه إلى كتيب عن «المدنية الملعونة».. يذرف فيه الدمع على الماضى بأمجاده.. ويصب نقمته على الحاضر بمستحدثاته، مطالباً فى خاتمته بتحطيم الطائرات

والمصانع.. الدبابات والآلات.. وداعياً للعودة بالإنسان إلى سيرته الأولى ..!!

كان صاحبى يتابع الحديث فى إعجاب وحماس لاهث..! وكأنما كان يجرى خلف كلماتى على صهوة جواد جامع..!!

وانفجر قائلاً فى حماس :

– معه حق .. والله العظيم . الأستاذ/ حمدى قريبك هذا ..! ومعهم حق هؤلاء «الهيبز» أيضاً .. وأنا معهم .. ولتسقط المدنية..!

قلت له مقاطعاً :

– على مهلك.. أو ليس هناك فى هذه الدنيا سوى الأبيض والأسود..؟ إن المشكلة لن تحل بالعودة إلى الخلف.. وهذا الحنين إلى الماضى، الذى نشاهده ونلمسه اليوم، وذلك الترحم على « أيام زمان».. ليس فى اعتقادى سوى ظاهرة تستحق التأمل، بل والعلاج أحياناً..! فهى ليست سوى محاولة للجوء إلى حسنات الماضى وحده دون سيئاته ومحاولة هروب من مواجهة الحقيقة..!

إن حال إنسان اليوم أشبه فى نظرى بحال التاجر الذى يعانى أزمة مالية.. فيبدأ فى إخراج دفاتره القديمة للبحث فيها عن رصيد يسد حاجته الماسة إلى المال..!

قال صاحبى :

– إذن لتكن ثورة فى الأخلاق.. وإحياء الدين.. وعودة إلى أمجاد الماضى ومنجزاته الكبرى.. أليس ذلك هو ما نحتاج إليه فى عالمنا العربى اليوم..؟!

منجزات الحضارة.. ونتاج المدنية

قلت :

– قد اتفق معك.. وقد لا يختلف معك إنسان عربى فى كل ذلك.. ولكن القضية ليست بتلك البساطة.. وإنما تحيط بها حقائق ومحاذير ينبغى إلقاء الضوء الكافى عليها.

– فينبغى التسليم ابتداء أنه لا الماضى كان كله خيراً خالصاً، ولا الحاضر هو الآن كله شر خالص.. وعلى ذلك فإن الحنين المطلق إلى الماضى إلى حد الرغبة فى تحطيم أو هجر منجزات المدنية الحديثة، ليس سوى نوع من المراهقة الفكرية وعدم النضوج..!

ومن ناحية أخرى.. فإن الانبهار بالمدنية الحديثة وتركيز السعى وراءها إلى حد الرغبة فى تحطيم أو هجر التراث الحضارى، هو فى حقيقته كمَنْ يرتفع ببناء على الرمال.. فتأتى الأعاصير لتعصف به وتحيله فى لحظات إلى حطام..!

– إن من الواجب دائماً تطوير التراث الحضارى والقيم الإنسانية، ووضع صيغ حديثة لها تتفق مع متطلبات الحياة العصرية وأوضاعها، وبحيث تكون تلك القيم دافعة للحياة وليست عبئاً عليها.. أو عقبة فى سبيلها.

– إن على الإنسان العربى أن يعى الفرق بين منجزات الحضارة والإنسانية وبين نتاجات المدنية الحديثة.. فتلك الأخيرة يمكن دائماً شراؤها بالمال قل أو كثر.. أما الأولى فقد لا يكفى فى تقييمها المال مهما كثر..!

والإنسان العربى لديه رصيد ضخم من المنجزات الحضارية والإنسانية التى لا يمكن فعلا تقييمها.

حجارة لا تقدر بمال ..!

وخذ على سبيل المثال مصر.. فإن أغلى أنواع الحجارة فى العالم هو تلك الحجارة الكريمة النادرة.. وهذه يمكن دائماً حساب قيمتها مهما بلغت بالوزن أو بالقياس ..**ولكن هناك نوعاً من الحجارة لا يمكن تقدير ثمن له وأعنى بها الآثار المصرية القديمة.. لأنها تمثل منجزات حضارية مصرية يعود تاريخها**

إلى أكثر من سبعة آلاف سنة..!

وهناك أيضاً مجموعة من «المفاهيم» العربية لا يمكن أيضاً تقدير قيمتها بمال الأرض كله.. لأنها تمثل قمة الحضارة العربية، بل والعالمية.

ومن ذلك مثلا وضع العلماء عندنا فى المرتبة التالية للأنبياء، ومن ذلك أيضاً أن خير الأمور عندنا هو الوسط، ومنه كذلك تعريفنا للقناعة بأنها كنز لا يفنى. ومنها أيضاً كلمات مثل «الشرف» و «الكرامة» و«الرجولة» و«الشهامة» و«النجدة» و«النخوة».. إلخ.. إن كل هذه الكلمات أو العبارات تمثل قناعات حضارية أصيلة وتراثاً إنسانياً ضخماً .. وأسلوب حياة.

ولقد أتى زمان كان الغرب فيه باعتراف مؤرخيه حتى اليوم ينهل بنهم من الحضارة العربية وينعم بمنجزاتها.. ولعل ما يعيشه الغرب اليوم من نهضة أو مدنية هى مدنية ونهضة ذات أصل عربى..!

قال صاحبى :

– إذن فما مشكلة الإنسان العربى..؟

قلت :

– المشكلة فى نظرى هى أن يجد الإنسان العربى طريقه وسط كل هذه المتناقضات والمحاذير.. وأن يجد لنفسه دوراً من جديد فى «صنع» الحضارة.. بدلاً من الاكتفاء بدور « المستهلك» لمنتجات المدنية.

ونحن أحياناً نلهث فى السعى خلف المدنية الأوروبية ونتعجل مظاهرها قبل جوهرها.. وننسى فى غمرة انشغالنا بذلك الكثير من قيمنا الحضارية والإنسانية الأصيلة.

وقد آن الوقت لكى يعرف الإنسان العربى الذى يبيع أحياناً

حضارته مقابل بعض منتجات الغرب الحديثة ومفاهيمه الاجتماعية المغايرة، إنه إنما يعقد صفقة خاسرة، لأن الحضارة ليست للبيع وليست للمقايضة.. ولو خوت البطون.. وحفيت الأقدام..!!

وقوبل المقال باستحسان بالغ من جميع المصريين ومن الرجل الكويتى العادى.. وكانت له ردود أفعال قوية.. ففى اليوم التالى أدلى أمير الكويت الراحل الشيخ/ صباح السالم الصباح - وكان فى إجازة فى أوروبا - بحديث إلى الصحف الكويتية تصدر بمانشيت «الإنسان العربى بخير». وفى اليوم التالى له أدلى وزير الإعلام بدوره بحديث تصدر عناوين الصحف قائلاً :

« إننا نحافظ على القيم العربية ونحرص عليها.. » وكما أن مقالى كان رداً غير مباشر على ما نشرته تلك الصحف من تراهات.. كان حديث كبار المسئولين تعليقاً غير مباشر على مقالى أو هو محاولة منهم للاعتذار ولتصحيح المفاهيم المغرضة.

ومنذ ذلك الوقت سكتت الأقلام المغرضة.. وتلاشت السخافات..!

فيينا ..

٩- هل تنتظر شيئاً يا سيادة الرئيس..؟

يقع مكتبنا لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية بفيينا فى شقة بالطابق العاشر من أحد المبانى القديمة فى وسط المدينة على بعد خطوات من دار الأوبرا العتيدة التى تشتهر بها عاصمة النمسا.

وذات صباح .. جاءنى سكرتير المكتب.. وهو مصرى من عائلة كريمة يقيم فى النمسا منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً

ومتزوج من سيدة نمساوية.. وابتدرني قائلاً :

– هل علمت ماذا حدث هذا الصباح..؟ لقد أوقعتني زوجتي في حرج بالغ.. فقد كانت تصحبني اليوم إلى المكتب.. ودخلنا إلى المصعد.. ودخل خلفنا رجل مسن أغلق الباب خلفه ولم التفت إليه.. وعندما تحرك المصعد همست زوجتي في أذني بصوت مسموع : «هذا الرجل وجهه ليس غريباً عليّ.. ترى مَنْ يكون؟».. واختلست النظر إلى الرجل .. هل تدرى مَنْ كان ..؟ كان الهر دكتور كيرشليجر (رئيس الجمهورية السابق على فالدهايم)..!! وحدجت زوجتي بنظرة محذرة ثم التفت إلى الرئيس أحييه باحترام وسألته عن مقصده.. فذكر لي أنه أتى لزيارة طبيب الأسنان الذي تقع عيادته أسفل مكتبنا حيث يعالج أسنانه عنده منذ فترة..!

وسألت السكرتير : هكذا.. لا حراسة ولا مرافقين..؟ قال : هكذا.. لا حراسة ولا مرافقين.. سوى سائق سيارته السوداء الذي ينتظره بأسفل المبنى..!!

وظللت أذكر تلك الراوية وإن لم أصدقها تماماً لاعتقادي أنه ربما شابتها بعض المبالغة أو أحاطت بها بعض الظروف الخاصة.. إلى أن جمعتني الظروف برئيس الجمهورية في مهرجان كريمز للفنون الشعبية.. حيث يقام بتلك المدينة الجميلة التي تقع على مسافة سبعين كيلومتراً غربي فيينا كل عامين مهرجان تؤدي خلاله أكثر من عشرين فرقة للفنون الشعبية من دول مختلفة عروضها في الاستاد الرياضي للمدينة في حفل ختامي يحضره الرئيس والمثلون الدبلوماسيون والثقافيون للدول التي أتت منها تلك الفرق.. ومن بينها الفرقة المصرية للفنون الشعبية التي أدت عرضاً ممتازاً قوبل بإعجاب وتشجيع عظيمين.. وانتهى الحفل برقصة موحدة جماعية شاركت فيها معاً فرق مختلفة من كل

حدب وصوب.. فمن السعودية إلى الولايات المتحدة إلى نيجيريا ففنلندا وفرنسا وأندونيسيا ومصر وألمانيا والاتحاد السوفيتى ويوغسلافيا.. حيث يحاول الفن دائماً أن يكون جسراً يربط بين الشعوب.. على نحو قد لا تستطيع السياسة دائماً أن تقوم به..!

وانتهى الحفل .. وعزفت الموسيقى السلام الجمهورى.. وانصرف الرئيس.. وبدأنا فى الانصراف تباعاً .. ولاحظت بعد اجتيازنا بوابة الاستاد الرئيسية.. أن سيارة الرئيس لا تزال عند البوابة وقد فتح بابها الخلفى والرئيس واقف إلى جواره مستند إليه.. فتقدمت منه وسألته: هل تنتظر شيئاً يا سيادة الرئيس ..؟ فأجابنى ضاحكاً : لا .. إن السائق لا بد لم يقدِّر أن الحفل سوف ينتهى مبكراً هكذا فقصد إلى أحد الأكشاك القريبة يحتسى مشروباً كعادة السائقين ..! ولابد أنه سيظهر حالا .. !

ولاشك أن الرئيس شعر بتحرجي من تركه بمفرده إذ طلب إلىَّ أن أواصل السير إلى مكان الفقرة التالية من البرنامج وهو قاعة الاحتفالات بمبنى البلدية ذاكراً أنه سيلحق بنا ويأمل أن يكون فى استقبالنا هناك .. حيث ستقدم فرقة «كورال» المدينة من الأطفال بعض الأغاني.

وواصلت السير.. مع بعض ممثلى الدول.. حتى وصلنا إلى مبنى البلدية.. وعلى السلم الرئيسي الكبير للمبنى.. كان الرئيس يقف فى انتظارنا ومعه رئيس البلدية وبعض منظمى الحفل.. وقال الرئيس مداعباً عندما اقتربنا منه: أنتم محظوظون لأنكم سرتم على الأقدام.. فأخذتم بذلك الطريق الأسهل والأقصر.. أما أنا فقد اضطررت أن أقوم بدورة كبيرة بالسيارة لأتحاشى الشوارع ذوات الاتجاه الواحد.. وهى متعددة فى هذه المدينة الجميلة.. ومع ذلك فقد وصلت على كل حال قبلكم !!!

قال صديق من دولة نامية .. هامساً فى أذنى:

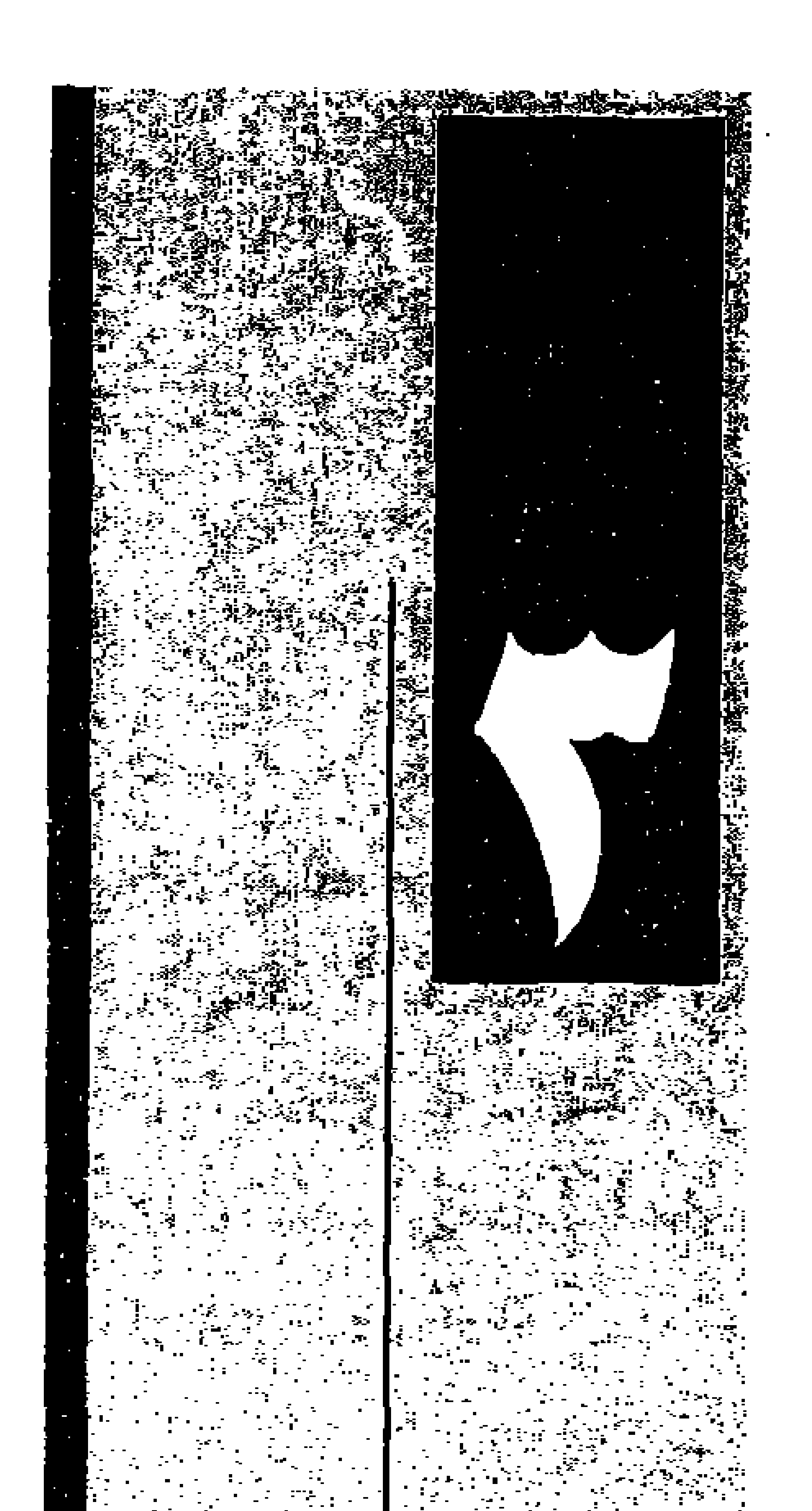
- هل رأيت ؟ وسمعت ؟.. ينتظر سائق سيارته.. بمفرده.. ويلف البلدة ليتحاشى الشوارع ذات الاتجاه الواحد.. هل يمكن أن يحدث مثل ذلك عندكم أو عندنا..؟

قلت :

- أنت تستدرجنى إلى موضوع يطول فيه الحديث.. والشرح.. والتحليل.. !

ولكن.. دعنى أقول لك ابتداء.. إن البساطة والتواضع.. والديمقراطية.. هى طريق طويل ذو اتجاهين.. يسير عليه الرئيس والشعب معاً فى الاتجاه الصحيح .. ! وإذا لم يكن كل منهما يؤمن فى أعماقه عن أصالة بتك القيم ويتخذها أسلوب حياة يمارسها كل يوم.. وتنعكس على التربية وعلاقات الأفراد فى البيت والشارع والعمل.. وعلى الإيمان بسيادة النظم الموضوعة والقانون.. ومعرفة كل لحقوقه وواجباته.. ولحدوده لايتخطاها.. إذا لم يكن كل ذلك كذلك.. فإن المسيرة حتماً سوف تتعثر.. وسوف تتغلب عليها فى النهاية الاتجاهات المضادة القادمة عكس الطريق..!

وانتبهنا إلى صوت الرئيس كيرشليجر يدعونا إلى مشاهدة عرض الكورال.. ومضينا فى صحبته إلى الداخل..!



شاهد على حرب الخليج الثانية

(غـــزو الكـويت)

من مـذكرات

سـفير سـابق

كنت صباح يوم الخميس الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ واقفاً أمام المرآة منهمكاً فى حلاقة ذقنى .. عندما دقت الساعة الثامنة موعد النشرة الإخبارية فى إذاعة قطر .. وإذا بالنشرة تبدأ بخبر مفاده أن قوات من الجيش العراقى قد تخطت الحدود العراقية ـ الكويتية من ناحية البصرة وتوغلت فى الأراضى الكويتية ..!

ودهشت للنبأ .. حيث اعتبرت ذلك تصعيداً لا مبرر له من جانب القيادة العراقية .. لأزمة كانت المفاوضات تجرى لإيجاد مخرج منها .. ولم يخطر ببالى للحظة أن العملية التى تمت هى اجتياح للكويت بأكملها .. لا عن عدم ثقة فى إمكانيات الجيش العراقى .. ولكن عن ثقة فى أن القيادة العراقية لا يمكن أن تكون من الغباء وقصر النظر السياسى إلى الحد الذى تقوم معه بغزو عسكرى بهدف احتلال الكويت .. وعلى كل حال فقد سارعت بارتداء ملابسى وتوجهت إلى مكتبى على مسافة خطوات قليلة من البيت حيث كانت تفصل بين سكن السفير ومبنى السفارة حديقة مزهرة ..

تنظيم المرور فى الكويت ..!

واتصلت بصديق هو رئيس وكالة الأنباء القطرية لأستجلى حقيقة ما حدث .. وإلى أى مدى توقف العراقيون بعد اجتياز

الحدود .. وكانت المفاجأة أن قال لى الرجل إن قوات الجيش العراقى منذ السادسة صباحاً تتولى مسئولية تنظيم المرور فى شوارع مدينة الكويت ..!!!

وبدأت الأنباء بعد ذلك تتتابع ليتضح حجم المغامرة التى أقدم عليها صدام حسين .. والتى شغلت الرأى العام العربى والعالمى لسنوات طويلة متعاقبة وما زالت آثارها لم تنته حتى يومنا هذا ..

ومن الغريب والطريف معاً أن إحدى الصحف القطرية وهى صحيفة « الشرق » التى كان يرأس تحريرها صحفى وطنى شاب هو ناصر العثمان .. أصدرت على غير العادة فى قطر طبعة مسائية عصر يوم الخميس ذاته تحمل عناوين اجتياح الجيش العراقى للكويت . ولم تدل بأى تعقيب على النبأ إلا أنها نشرت فى صدر الصفحة الأولى صورة كبيرة لملوك وأمراء دول الخليج الست : السعودية والكويت والإمارات وعمان وقطر والبحرين وبغير أن تكتب تحت الصورة أى تعليق . وقد اعتبرت السلطات القطرية ذلك محاولة من الصحيفة لوضع سؤال تهكمى غير مكتوب مؤداه : أين قادة دول الخليج الست ..؟ وكيف سمحوا بوقوع ذلك ..؟ ولماذا لم نسمع أى تعليق من جانبهم ..؟ فكان أن صودرت الجريدة وصدرت الأوامر بإغلاقها إلى أجل غير مسمى..!!

استخدام القوة مرفوض

وقد طلبت منى إحدى الصحف القطرية الرئيسية التعليق على الغزو العراقى للكويت . ولم تكن لدى تعليمات بعد عن الموقف المصرى الرسمى .. خاصة وأننا كنا أعضاء معاً فى مجلس التعاون العربى..

ومع ذلك فقد وجدت من الواجب علىَّ أن أبدى رأيى إن لم يكن

بصفتي الرسمية كسفير ، فعلى الأقل كمواطن مصرى عربى . وكنت واثقاً أن موقف مصر الرسمي سيعكس ما يشعر به أى مواطن مصرى عربى فى مثل تلك الظروف ..

وجرى تعليقى على النحو التالى :

« إننى كمواطن مصرى وعربى ينتمى إلى دولة شاركت فى تأسيس الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ وفى تأسيس جامعة الدول العربية فى نفس العام أقول :

أولاً : إن عدم استخدام القوة المسلحة لحل المشاكل بين الدول هو مبدأ اتفقت عليه دول العالم التى أسست الأمم المتحدة . فالعدوان غير مقبول دولياً .. واستخدام القوة المسلحة مرفوض كوسيلة تحل محل الحوار .. وهو غير مقبول بشكل أكبر عندما يتعلق الأمر بالأشقاء وعندما تكون القوة المستخدمة عربية ضد دولة عربية شقيقة .. وعندما يراق دم عربى غال ..

ولطالما نادت الأمة العربية وما زالت تنادى بتطبيق هذا المبدأ ومطالبة إسرائيل بالتخلى عن الأراضى التى احتلتها بالقوة عام ١٩٦٧، كما أننا طالما نادينا ونادى معنا الأحرار فى كل مكان بمبدأ تقرير المصير لكل شعوب العالم .. وقد حصل الشعب النامیبى على استقلاله بعد مائة عام من الاحتلال استناداً إلى هذا المبدأ الراسخ .. ونأمل ألا يكون بعيداً اليوم الذى ينال فيه الشعب الفلسطينى الشقيق هذا الحق الثابت لكل شعوب الأرض ..

ولذلك ، فإننا لا يمكننا التخلى عن هذه المبادىء وإلا نكون قد تخلينا عن كياننا ووجودنا ..

ثانياً : لقد سعت مصر دائماً بكل طاقاتها إلى دعم التضامن العربى بكل صوره ودفعه فى كل المجالات السياسية والاقتصادية وغيرها باعتبار أن ذلك هو السبيل الوحيد لتحقيق أهداف الأمة

العربية فى عالم متغير .. وكنا قد حققنا بالفعل خطوات فى هذا الاتجاه .. ومن المؤسف أن نجد اليوم كل تلك الجهود قد أصيبت بنكسة بالغة الخطورة .. وأصبح العالم العربى مهدداً بالعودة إلى الوراء عشرات السنين ..

وكنا نتوقع دائماً أن يقوم أعداء السلام فى الشرق الأوسط بعمل يصرف الانتباه عن جهود السلام ويعطلها ويصرفنا عن القضايا التى تشغل الأمة العربية .. مثل هجرة اليهود السوفييت .. واليوم وبفعلنا العربى .. وليس بفعل خارجى .. نجد العالم كله يركز أنظاره على ما يجرى فى الكويت الشقيق .. ذلك البلد الذى كانت له جهوده دائماً فى طليعة جهود الأمة الإسلامية والعربية .. وإننى واثق على كل حال أن الذى سيتغلب فى النهاية هو صوت العقل والحكمة .. وصوت المصلحة العربية العليا .. وإننا نأمل أن تصحو الأمة العربية قبل فوات الأوان وقبل أن تعبث بمقدراتها رياح عاتية لا تبقى ولا تذر .. فى عالم يعتمد فيه الجميع على التضامن والتكتل .. » .

سياسة مصرية

ولم تبتعد هذه التصريحات كثيراً عن الموقف الرسمى الذى أُعلن فيما بعد .. ذلك أن هناك ثوابت فى السياسة المصرية الخارجية لا تتقيد بتغير العهود أو الأشخاص ..

وأذكر أننى كنت فى مطار الدوحة يوم الخميس التاسع من أغسطس ١٩٩٠ أودع أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى مسافراً إلى القاهرة لحضور القمة العربية .. التى دعا إليها الرئيس حسنى مبارك لتجتمع فى اليوم التالى (١٠ أغسطس) .. وفى حديث جانبى مع أحد كبار المسئولين قال :

– لقد فعلها جمال عبد الناصر عندما فكر عبد الكريم قاسم فى

تهـديد الكويت واحـتلالهـا .. ولكن أن يكون هذا الموقف لمبـارك .. لم يكن أحد بصراحة يتوقع ..

قلت له على الفور :

– عبـد الناصر مصر .. ومـبارك مصـر .. ولو أتى للحكم بعد عشرين سنة شخص اسمه محمود .. فسوف يفعل نفس الشيء !! هذه هى مصر .. وسياسة مصر ...!

وكان لى يوم الـثلاثاء التالى للـغزو لقاء مع سـفيـر العراق .. لأنقل إليــه طلب الحكومـة المصــرية السـمـاح لــمَنْ يرغب من المصريين ممن غـادروا الكويت بالعودة إليهـا . وألا يمس المصريين أى ضرر ..

وقد اتصلت بالسفير أطلب إليه تحـديد موعد لنتقابل بمكتبه أو بمكتبى .. وكان الرجل كريماً حـيث عرض بلا تردد أن يحضر هو إلى مكتبى فرحبت به ..

وكـان ذلك أول لقاء لنا منذ غـزو الكويت فـتبـادلنا فيـه الآراء بحرية كاملة وبموضوعية لم تتح لنا الظروف بعد ذلك مثلها حيث تحددت فى الأيام التالية المواقف الرسمية للأطراف بصورة جعلت من غير الممكن أو المجدى تبادل الآراء فى الموضوع .

لقد استمـر الحوار بيننا أكثر من ساعتين .. ولكننى سـأقتصر هنا على بعض النقـاط التى يمكننى الإشارة إليـها بغيـر أن أسبب حرجاً لأى طرف ..

بادرته بقولى :

– قل لى بالله عليك كـيف حدث ما حـدث .. إن الرئيس صدام قـد أكـد للرئيس مـبـارك قـبل أيام قليلة أن الحـشـود الموجـودة بالبصرة هى فى إطار تحركات روتينية للقوات ..

قال مبتسماً :

– لعلك لم تكن تتوقع أن يفصح الرئيس لرئيسكم عن نيته فى الهجوم وموعد ذلك الهجوم إن الحرب كما تعلمون خدعة ..!

لم ينفع التحذير..

واستطرد قائلاً :

– لقد وصل اقتصادنا إلى ما تحت الصفر .. بسبب الحرب مع إيران لثمانى سنوات كانت فى الحقيقة من أجل الدفاع عن البوابة الشرقية لدول الخليج .. فكان جزاؤنا فى النهاية جزاء سمنار .. فالكويت تطالبنا بإلحاح بغيض بسداد سبعة مليارات دينار .. وهم يسرقون البترول العراقى من آبار فى شمال الكويت ـ وبنات العراق فى البصرة كن يبعن أجسادهن للسياح الكويتيين الذين يزورون البصرة لشرب الخمور الممنوعة فى بلادهم ..

وقد حذرناهم المرة تلو الأخرى أننا لن نتحمل بلا نهاية .. ولم ينفع التحذير فكان الغزو الذى لم يستغرق سوى ساعات ..!!

قلت :

– إننى أتفهم هذه الظروف الصعبة ولكنها لا تبرر اجتياح دولة عضو فى الأمم المتحدة وفى جامعة الدول العربية ودعنى أسألك :

هل وضعتم فى حساباتكم ردود الفعل الدولية على ذلك العمل ..؟؟

قال :

– إن الولايات المتحدة بعد حرب طويلة فى فيتنام انسحبت تجر أذيال الخيبة .. وسوف تلقى نفس المصير إذا تدخلت عسكرياً فى الكويت ..

قلت :

– إن موقف الولايات المتحدة فى فيتنام يختلف تمام الاختلاف .. فطبيعة الناس والأرض فى فيتنام مختلفة عنها فى

الكويت .. ومن ناحية أخرى .. فالولايات المتحدة فى فيتنام كانت تحارب والعالم كله ضدها يتعاطف مع فيتنام .. وأنتم فى الكويت ستكونون بمفردكم وسيقف العالم ضدكم .

قال على الفور :

– لا تنس أن الاتحاد السوفيتى سيقف إلى جوارنا ..

قلت :

– اسمح لى هنا أن أخالفك الرأى .. إن الاتحاد السوفيتى يعرف مصالحه جيداً وأين تقع .. وهى حالياً فى يد الولايات المتحدة الأمريكية بل فى قبضتها .. ولعلك قرأت البيان المشترك الأمريكى – السوفيتى باستنكار الاعتداء والمطالبة بالانسحاب .. إن ذلك البيان قد صدر من موسكو .. فقد قطع بيكر زيارته إلى منغوليا والتقى بشيفرناتزى وزير الخارجية السوفيتى بمطار موسكو ليصدرا بياناً مشتركاً من هناك .. ولذلك دلالة واضحة ينبغى ألا تغيب عليكم ..

واستطردت قائلاً :

– إننى أخشى أن الشعب العراقى سوف يسألكم – لماذا تجروننا إلى حرب جديدة ولم نكد نخرج من الحرب مع إيران التى استمرت لثمان سنوات خرجنا بعدها بنتيجة تساوى صفر .. بعد إنفاق البلايين من الدولارات ـ لقد كانت العراق بمواردها النفطية والطبيعية وعقول أبنائها دولة واعدة وكان يمكن لها أن تكون أكبر دولة فى المنطقة .. ولكن إذا تمسكتم بالمواجهة فسوف يقضى عليكم .. لأن الجيش العراقى نفسه لن يجد فى نفسه الرغبة فى مواصلة حرب جديدة بعد التضحيات الجسام فى الحرب مع إيران بغير نتيجة ..

قال :

- إن شعبنا على استعداد كامل للمواجهة .. ونحن نستطيع العيش على التمر واللبن .. وقد فعلنا ذلك فى الماضى ونستطيع الاستمرار فيه فى المستقبل ..

قلت :

- إننى أتحدث إليك ليس كسفير لمصر .. وإنما كمواطن مصرى عربى عادى يحب العراق وشعب العراق .. وإن رؤيتى للوضع اليوم هى كالآتى :

انسحبوا اليوم وليس غداً ..!

لقد قام الجيش العراقى بحملة تعد من الناحية العسكرية البحتة عملاً متميزاً حيث حقق المهمة التى كلف بها فى ساعات معدودة وبأقل الخسائر الممكنة فى الأفراد والمعدات .. ونظر إلىَّ السفير فى زهو بالغ وبابتسامة عريضة ...

واستطردت قائلاً :

- إن عليكم اليوم أن تجنوا ثمار تلك الحملة الناجحة ..

ولن يكون ذلك إلا بإعلان الانسحاب .. اليوم وليس غداً .. إذا أعلنتم الانسحاب اليوم .

● فسوف يحصل العراق على كل مطالبه ..

● سوف تسقط عنه ديون الكويت .. وربما ديون الدول الخليجية الأخرى .. بل وربما تسدد له نفقات الحملة التى قام بها الجيش فى الكويت ..!

● وسوف يحصل العراق على مطالبه البترولية من الكويت ..

● وسوف يحصل العراق على الممر المائى الذى يطالب به ..

● وسيكون الرئيس العراقى ـ فوق ذلك ـ بطلاً عربياً تاريخياً حيث سيسجل له التاريخ أنه أغنى الأمة العربية عن صراع قادم لا شك فيه يرفع فيه العربى سلاحه على العربى .. وتستنفد فيه

أموال العرب .. وتستدعى قوات أجنبية للمساعدة .. والخاسر فى النهاية هو شعب العراق والأمة العربية كلها ..

قال وقد لمعت عيناه :

– حقاً كل ذلك محتمل الحدوث ..؟

قلت :

– نعم وبشرط أن يعلن العراق انسحابه .. اليوم وليس غداً .. وأتصور أن الرئيس مبارك وهو يجلس الآن فى الإسكندرية مع السيد عزة إبراهيم نائب رئيسكم يقول له نفس الكلام الذى أقوله اليوم .. وأكرر مرة أخرى أننى أتحدث كمواطن عربى – والحكمة فى المبادرة بالإعلان هى قطع الطريق أمام أى تدخل دولى أو حتى مواجهة عربية إذ سيكون العراق الذى أشعل الموقف هو نفسه الذى احتواه بعد أن تتحقق له مطالبه ..

وانتهت المقابلة الودية على ذلك ..

ولم يعلن العراق عن نية الانسحاب ..

وفى اليوم التالى أعلنت الولايات المتحدة عن عزمها مساعدة الكويت والسعودية تلبية لطلبهما ..

ووجه الرئيس مبارك الدعوة إلى عقد قمة عربية عاجلة فى القاهرة تعقد يوم الجمعة ١٠ أغسطس ١٩٩٠ ..

وأعلن العراق من جانبه فى نفس اليوم عن ضم الكويت إلى العراق لتصبح الولاية التاسعة عشرة العراقية فى الجنوب ..!!

وأسدل بعد ذلك الستار على فصل .. ليبدأ فصل جديد .. تختلط فيه التراجيديا بالكوميديا .. وينطبق عليه المثل الذى يقول :

« إن شر البلية ما يضحك ..! » .

بعد نظر

جاءنى ثلاثة من شباب الصحفيين المصريين الذين يعملون فى الصحف القطرية .. وبادرونى بقولهم :

– بصراحة هل كنت تعرف بالغزو العراقى سلفاً ..؟

قلت :

– كنت أعرف أن الغزو عسكرياً ممكن أن يحدث .. ولكن بصراحة لم أتوقع أن تكون القيادة العراقية قصيرة النظر إلى حد عدم تقدير العواقب وإلى حد الخطأ الجسيم فى الحساب ..

قالوا :

– إننا محررون فى الصحف نهتم بالأنباء .. فلا نقصد بسؤالنا تحليلك للموقف .. وإنما نعنى مباشرة هل كانت لديك أنباء محددة بوقوع الغزو ..؟

قلت :

– وما الذى يحلكم على ذلك الظن ..؟

قالوا :

– دعنا نذكرك بحديثك معنا فى رمضان الماضى (فى شهر أبريل ١٩٩٠) على سلم مدخل السفارة .. حول تهديدات صدام حسين لإسرائيل .. والثنائى الكيماوى .. إلخ ..

وابتسمت وأنا أعود بالذاكرة إلى تلك الليلة الرمضانية التى وافقت العاشر من رمضان فى شهر أبريل من نفس العام ١٩٩٠.. وتلك قصة أخرى ...

كان شهر رمضان في قطر شهراً حافلاً عادة باللقاءات الثقافية والدينية .. حيث كان يزور قطر فى ذلك الشهر من كل عام كبار المقرئين المصريين وبعض الأئمة والعلماء .. من أمثال الشيخ عبد الباسط عبد الصمد والشيخ الطبلاوى ومحمود على البنا

وغيرهم .. ومن العلماء الشيخ محمد طنطاوى مفتى الديار المصرية آنذاك والإمام محمد الغزالى العالم الفاضل .. والشيخ صلاح أبو اسماعيل عضو الوفد الذى اشتهر بخفة الظل .. مع ضخامة الجسم .. وكان يطلب دائماً أن تعد له أريكة لشخصين لاستخدامه الخاص فى الجلوس .. وقد دعى ذات مرة إلى الإفطار فى بيت السفير وما أن انطلق المدفع وأخذ الحاضرون أماكنهم حتى التفت الشيخ صلاح إلى الشيخ الغزالى فى الجانب الآخر من المائدة قائلاً له بصوت جهورى :

– كل يا شيخ محمد .. دى فلوس الحكومة ..!! وضحكت مع الحاضرين وإن كان بعض الضيوف من أبناء الجالية شرحوا له أن هذه الحفلات يدفعها العضو الدبلوماسى من مرتبه وبدل التمثيل الذى يتقاضاه بلا رقيب أو حسيب إلا ضميره ....

وكان ذلك يمثل قوة روحية وزخماً دينياً يضاف إلى ذخيرة من العلماء المصريين الموجودين بالفعل فى قطر من أمثال الدكتور يوسف القرضاوى والشيخ عبد الستار وغيرهما من العلماء الأفاضل ..

وكانت السفارة تسعد بهم وتقيم بمناسبة وجودهم حفلات إفطار وندوات دينية ممتدة فى الموضوعات المختلفة يحضرها أبناء الجالية المصرية فى قطر .. كما يحضرها أبناء الشعب القطرى والسفراء العرب والمسلمين .. وكانت فرصة للتداول والمناقشة فى كل ما يهم الأمتين العربية والإسلامية ..

وكنا فى تلك الليلة التى أشار إليها الصحفيون الشبان نقيم بدار السفارة ندوة بمناسبة العاشر من رمضان .. وكان نجم الحفل هو الإمام والعالم الجليل الشيخ محمد الغزالى ..

واكتظت القاعة بالحضور .. كما حضر لتغطية الندوة مندوبو

الصحف المهمة فى قطر والتليفزيون القطرى ..

وكان أول المتحدثين هو الدكتور كمال ناجى أمين عام الجالية المصرية .. حيث تناول انتصارات العاشر من رمضان .. ثم عرج فجأة على ما أعلنه الرئيس العراقى صدام حسين قبل أيام عندما نقلت شاشات التليفزيون صورته فى اجتماع عام ممسكاً بيده قطعة تشبه منظم أنبوبة البوتاجاز وأعلن أن العراق قد توصل إلى إنتاج « الكيماوى المزدوج » الذى يستطيع أن يحرق نصف إسرائيل ..! وقامت وقتها الدنيا ولم تقعد .. وثار الإعلام الغربى على العراق .. وطرحت مصر من جانبها مشروعاً لنزع أسلحة الدمار الشامل من المنطقة ليشمل كذلك ترسانة إسرائيل النووية .. وأصدرت الجامعة العربية بياناً فى نفس الاتجاه ..

وفى ظل تلك الظروف وقف الدكتور كمال ناجى يقول فى حماس شديد :

– إننا نحيى الرئيس صدام حسين ..

ونقول له .. فلتحرق نصف إسرائيل ..

واترك لنا النصف الباقى لنتولاه بأنفسنا ..!! وقوبلت هذه الفقرة بتصفيق وحماس من بعض الحاضرين ..

وقد فكرت بسرعة فى التزامات مصر الرسمية بمقتضى معاهدة السلام .. وأن مثل هذه العبارات قد تستغل ضدنا إذا ما نشرت .. فطلبت من أحد أعضاء السفارة الحاضرين أن يطلب بهدوء من مندوب التليفزيون والصحفيين الحاضرين عدم نشر هذه الفقرة من الخطاب .

ومضى الحفل بعد ذلك بصورة عادية ، فلم ينساق الشيخ الغزالى إلى هذا الموضوع وإنما تحدث بصفة عامة عن واجبات المسلمين فى هذا العصر الملىء بالتحديات ..

وأذكر أن أحد الحضور سأله رأيه فى الحجاب أو النقاب فرد عليه قائلاً باللهجة المصرية العامية قائلاً :

- يا أخى روح إنت غطى وشك الكالح .. مش مكسوف من نفسك ..؟ دى رئيسة وزراء إنجلترا امرأة (تاتشر .. أو المرأة الحديدية كما كانوا يسمونها) .. وأنت بتسألنى عن الحجاب أو النقاب ..؟؟

وبعد نهاية الحفل وأثناء خروجى استوقفنى الصحفيون الشبان الثلاثة على سلم الباب الخارجى للسفارة وسألونى قائلين :

- إننا سوف نحترم رغبتك .. ولكن ما السبب فى عدم نشر هذه الفقرة ..

قلت :

- إننى لا أثق فيما أعلنه صدام حسين .. وأتساءل إذا كان يستطيع فعلاً أن يحرق نصف إسرائيل فما الذى منعه من حرقها حتى اليوم ..؟؟ إن مثل هذه التصريحات التليفزيونية فى تقديرى تضرنا عربياً ولا يستفيد منها سوى إسرائيل التى تأخذها وتحصل بها من الغرب على الأموال الطائلة والمساعدات العسكرية الهائلة ..

تذاكرنا كل ذلك وقلت للشباب الصحفيين ..

- لقد كنت أعنى ما أقول .. وقد ثبت أن تلك التصريحات كانت جوفاء .. وها هو الثنائى الكيماوى المزدوج موجه اليوم إلى الكويت وعواصم دول الخليج الست وليس إلى إسرائيل ..؟؟

قالوا :

- كان معك كل الحق .. وقد استغربنا يومها .. ولكن ثبت أنه كان لديك بعد نظر .. أيدت الأيام صحته ..

التطورات التالية للغزو مباشرة ..

ألقى الرئيس مبارك بعد ذلك مزيداً من الضوء على الأحداث التى تلت مباشرة عملية الغزو العراقى للكويت وذلك فى مؤتمر صحفى مهم عقد بالقاهرة يوم الأربعاء ٨ أغسطس ١٩٩٠ ..

قال الرئيس مبارك إن الملك حسين حضر إلى الإسكندرية عصر يوم الغزو الخميس ٢/٨/١٩٩٠ للتشاور فى ذلك التطور الخطير للموضوع .

وعرض الرئيس مبارك أفكاره فى أنه على استعداد للسفر إلى بغداد ومحاولة الحصول على موافقة الرئيس العراقى على نقطتين أساسيتين يمكن بناء عليهما عقد قمة عربية مصغرة :

النقطة الأولى : ضرورة الانسحاب الفورى من الكويت لأنها دولة مستقلة ذات سيادة .

والنقطة الثانية : التعهد بعدم ضرب الأنظمة أو إزاحتها بالقوة لأن تغيير الأنظمة هو مسئولية الشعوب وحقها .

ثم اتفق على أن يسافر الملك حسين ويلتقى بالرئيس صدام .

وطلب الملك حسين عدم إصدار بيانات سواء من الجامعة العربية أو غيرها قد تؤدى إلى نفس الجهود التى ستبذل لوقف تدهور الموقف .

ومارس الرئيس مبارك قدراً كبيراً من ضبط النفس حتى لا يصدر بيان كان جاهزاً للصدور من مصر ، كما مارس ضغطاً على مجلس وزراء الجامعة العربية والمنظمة الإسلامية حتى يؤخروا إصدار بياناتهم إلى اليوم التالى الجمعة ٣ أغسطس ١٩٩٠ ، وبحيث يفسح المجال للجهود المبذولة مع العراق لتثمر وتأتى بما هو مرجو منها من علاج حاسم للمشكلة ..

وفى اليوم التالى .. الجمعة ٣ أغسطس ١٩٩٠ اتصل الملك

حسين فى الرابعة بعد الظهر بالرئيس مبارك ليبلغه أنه حصل على موافقة الرئيس صدام حسين على عقد القمة المحدودة لمعالجة المشكلة ..

ولما استفسر منه الرئيس مبارك عن الأساس الذى وافق على عقد القمة عليه .. قال الملك إنه لم يتمكن من مناقشة التفاصيل مع صدام حسين !!! وطبيعى أن ذلك كان إخلالاً بالاتفاق ولا يعنى سوى أحد أمرين : إما أن الملك حسين لم يشأ أن يعرض الأساسين لعقد القمة على الرئيس العراقى .. وإما أنه عرضهما عليه ورفضهما الأخير ..

وفى كلتا الحالتين كانت النتيجة هى عدم جدوى عقد القمة المصغرة ..

وبالتالى أصدرت مصر بيانها مساء يوم الجمعة ٣/٨/١٩٩٠ وتلاها بيان من وزراء الخارجية العرب تخلفت عن الموافقة عليه كل من اليمن والأردن والسودان وموريتانيا ومنظمة التحرير الفلسطينية كما أن ليبيا تغيبت عن الحضور . ثم صدر بيان من وزراء خارجية دول مجلس التعاون الخليجى ثم من دول المؤتمر الإسلامى .

وقد أدى التأخير فى صدور البيانات العربية والإسلامية عن الموقف إلى وضع غريب وهو أن مجلس الأمن الدولى كان سباقاً فى إصدار قراره الأول رقم ٦٦٠ بإدانة الغزو العراقى للكويت باعتباره خرقاً للسلم والأمن الدوليين مما يندرج تحت الفصل السابع للميثاق والمطالبة بانسحاب القوات العراقية فوراً من الأراضى الكويتية . وجاء المؤتمر الصحفى للرئيس مبارك ليشرح الأسباب التى أدت إلى تأخير إصدار البيانات العربية وهى أسباب منطقية لها وجاهتها .

ثم تضمن المؤتمر الصحفى نقاطاً وحقائق مهمة .. وترجع أهميتها كذلك إلى توقيت التصريح بها وهو اليوم السادس من الغزو .. وقبل أن تتخذ أية دولة عربية أو غير عربية أى إجراء حيال ذلك الغزو .. وكان من الممكن حتى تلك اللحظة الأخذ بالحل العربى .. والانسحاب الكريم .. وتسوية جميع المشاكل .. والاحتفاظ بالوحدة والتضامن بين دول العرب .. وتجنيب الأمة العربية العودة إلى الوراء عشرات السنين ..

وأهم هذه الحقائق هى :

أولاً : فقدان الثقة بين الأنظمة العربية بعد أن أكد صدام حسين أنه لن يضرب الكويت وتبين فيما بعد أن قراره بضربها والاستيلاء عليها كان قد اتخذ بالفعل وبقى فقط تحديد ساعة الصفر .

ثانياً : إننا لا نستطيع أن نلوم دولة عربية احتلت أن تطلب المعونة من أى قوات عربية أو أجنبية .

ثالثاً : إنه إذا طلب من مصر المشاركة فى إطار قوات عربية أخرى مشتركة لتأمين بلد ما فلن ترفض مصر .

رابعاً : إذا ما رفض العراق الحل تحت مظلة عربية فسوف تأتى مظلة أجنبية أمريكية فرنسية إنجليزية وتفرض على الأمة العربية ما لا تريده .

خامساً : إننى بصراحة أرى الصورة سوداء .. وكرجل لدى سابق خبرة فى هذا المجال (العسكرى) الصورة مخيفة ..

« وآن ما كناش نتدارك الموضوع ده ... »

سادساً : إن مصر ليس بينها وبين العراق عداء ولا تتحامل على أحد وإن ما يقال كنصيحة لدولة ما أو لصديق هو لوجه الله وللسلام العربى والأمن القومى العربى ..

سابعاً : أناشد الرئيس صدام حسين والقيادة العراقية الاستجابة للمظلة العربية وسحب القوات من الكويت ولا مانع من قوات عربية مشتركة تقف بين الجانبين على أن تبدأ المحادثات لحل المشكلة .

قمة عربية عاجلة

ودعا الرئيس مبارك إلى عقد قمة عربية عاجلة فى خلال ٢٤ ساعة .. « وأرجو من الملوك والرؤساء أن تستجيب لهذا النداء وأنا مستعد فى هذا الظرف أن أستضيف القمة العربية فى مصر لعلنا نصل إلى حل قبل أن يحدث ما لانهواه وما لانرتضيه لأنفسنا » .

وانعقدت القمة العربية بالفعل فى الموعد الذى حدده الرئيس مبارك .. ولا عجب .. فقد كانت مصر هى الداعية ..! فقد بدأ الملوك والرؤساء يفدون إلى القاهرة فى اليوم التالى لتوجيه الدعوة الخميس ١٩٩٠/٨/٩ .. أى الخميس التالى لوقوع الغزو .

وحضر عن الكويت الشيخ صباح السالم الصباح نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية .. وحضر عن العراق السيد عزة إبراهيم نائب رئيس مجلس الثورة ..

ولست فى مجال عمل تقرير عن القمة التاريخية .. فقد تمت تغطيته إعلامياً بما فيه الكفاية فى حينه .. بل وشملت التغطية بعض جوانب الجلسات المغلقة والمشادات التى حصلت بين الوفدين العراقى والكويتى والتى استخدمت فيها ألفاظ بذيئة ووصل الحد إلى التشابك بالأيدى ..!!!

ولكن لفت نظرى أن القمة أسفرت عن قرار بالأغلبية وافقت عليه دول بإدانة العراق وإرسال جيوش عربية فى إطار حملة مشتركة لتحرير الكويت والدفاع عن السعودية .. وقد امتنعت عدد من الدول عن التصويت .. كما غابت تونس عن الاجتماع فلم

يحضر الرئيس زين العابدين بن على على الإطلاق وبرر ذلك تبريراً غريباً حيث اعترض على أسلوب الدعوة أو أدعى أنها لم تصله أصلاً ..!!!

وكان الشيء الذى لفت نظرى أن الرئيس مبارك كان يجلس في مكان الرئاسة وخلفه خبيران بالمؤتمرات هما عمرو موسى وأسامة الباز وكان المطروح على القمة أمرين :

إدانة الغزو العراقى .. واتخاذ الإجراءات إزاء ذلك الغزو لتحرير الكويت .

وكانت كل الدول العربية بغير استثناء تدين الغزو أو على الأقل لا تؤيده وتطالب العراق بالانسحاب .. ولكن كانت بعض الدول العربية لا توافق على إرسال جيوش عربية لتحرير الكويت .

لذلك ، فقد كان تساؤلى الذى لم أجد عليه جواباً هو : لماذا لم يعرض الأمر على القمة العربية فى شكل مشروعى قرار : الأول يدين الغزو ويطالب العراق بالانسحاب .. والثانى يتناول وسائل إنهاء الغزو وتحرير الكويت .. عندئذ كان القرار الأول سيحصل على إجماع عربى .. ويصدر القرار الثانى بأغلبية .. وأن المنطق يقول بذلك كما تقول به الخبرة فى المؤتمرات الدولية .

وظل هذا التساؤل يلاحقنى بدون جواب شاف إلى أن انتهزت فرصة وجود الرئيس مبارك فى زيارة لقطر فى أكتوبر ١٩٩٠ . فوجهت إليه هذا السؤال .. ورد علىَّ الرئيس بتلقائيته المعهودة :

– قرار انسحاب وقرار إجراءات إيه .. دول ما كانوش عاوزين أى قرار يصدر أصلاً .. ولذلك حزمت الأمر وطرحت القرار الذى صدر بالأغلبية وإلا لانفض المؤتمر بغير صدور قرارات عنه ..!

وبعد عودتى إلى القاهرة فى عام ١٩٩٢ تصادف التقائى بأحد

رجال القانون الدولى الذين كانوا قد تواجدوا فى المؤتمر كمستشار دولى (د. مفيد شهاب على ما أذكر) ووجهت إليه السؤال نفسه .. وكان تفسيره أن الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية هو الذى تمسك بأن يصدر قرار واحد فى الموضوع ...

وكان الرئيس مبارك قد أعلن من قبل فى مؤتمر صحفى عالمى عقده فى ٢٨/٨/١٩٩٠ عن الظروف التى أحاطت بالقمة العربية الطارئة بالقاهرة « كانت هناك دول أربع تريد إفشال القمة بكل الطرق حتى تفشل قمة القاهرة بغير إصدار قرار ، ولاحظت كل هذه التحركات ، ولا أريد أن أذكر أسماء الدول حتى لا أحرج أحداً » .

كما جاء فى تصريح الرئيس مبارك ما يبرر الرأى الذى كنت أقوله من أن فصل القرار ضد احتلال الكويت عن قرار الإجراءات كان يمكن معه أن يحصل الأول على إجماع .

فقد قال :

« تحفظت الجزائر وليبيا . العقيد (القذافى) لا يقف إلى جانب احتلال العراق للكويت على وجه الإطلاق فهو يرفض هذا . إنما هو لديه تحفظ على الوجود الأجنبى » .

أخطاء جسيمة

وبالإضافة إلى الخطأ الاستراتيجى الجسيم الذى ارتكبه العراق بغزو الكويت .. ثم بإصراره على عدم الانسحاب .. وكل ذلك تم بناء على سوء تقدير جسيم للموقف .. وتوقعات خائبة بأن تأتى الأيام بما يثبت ويفرض الأمر الواقع الجديد ..

وهو أسلوب تخصصت فيه إسرائيل بمهارة .. ولكنها تستند فيه إلى التفوق العسكرى ومساندة الدول الكبرى .. وهو ما لا

يتوافر فى حالة العراق وغزوها للكويت ..

نقول إنه بالإضافة إلى هذا الخطأ الاستراتيجى الجسيم .. فإن العراق وقع فى سلسلة من الأخطاء التكتيكية والإعلامية .. مبنية على سلسلة من الأكاذيب .. المكشوفة ..

لقد بدأت العملية كلها بكذبة مؤداها أن أهل الكويت استنجدوا بالعراق لتخليصهم من الأسرة الحاكمة ..!

وقد عشت فى الكويت فى السبعينات ثلاث سنوات .. وفى رأيى أنه إذا ما قارنا بين نظام الحكم فى الكويت والعراق .. فسوف نتبين سريعاً أنه فى الكويت - نسبياً - نظام ديمقراطى بل وأقرب إلى الاشتراكى من كثير من الدول الشيوعية السابقة ..!!

فالصحافة الكويتية تكتب بحرية قاربت حرية الصحافة اللبنانية .. ومناقشات مجلس الأمة الكويتى حامية ومحاسبة الوزراء تؤدى إلى استقالتهم أحياناً ..! والدخل فى الكويت يوزع على أهل الكويت بطرق مختلفة منها شراء كوخ صغير يملكه كويتى بمقابل كبير بحجة أن تحته بئر بترول محتمل ومنحه قطعة أرض فى مكان آخر بالمدينة وقرضاً لبنائها يحصل جزئياً ثم يتم التنازل عنه .. كما أن لكل كويتى لا يعمل معاشاً حده الأدنى ٧٠ ديناراً (حوالى ١٠٥٠ جنيهاً) والحكومة تدعم السلع التموينية التى تباع فى الجمعيات التعاونية المنتشرة فى كل حى .. مثل : الأرز والسكر والدقيق واللبن .

والأمير فى الكويت مكتوب على باب قصره عبارة يقرأها كل صباح قبل دخول القصر تقول :

« لو دامت لغيرك ما اتصلت بك .. » !!

ولكل ذلك ، فإن القول إن زحف العراق واجتياحه للكويت كان لتخليص الشعب الكويتى من الأسرة الحاكمة هو قول لم يصدقه أحد ..

وعلى كل حال ، فإن العراق لم يهتم بأن يصدقه أحد .. ذلك أنه بعد أيام قليلة أعلن ضم الكويت لتصبح المحافظة التاسعة عشرة من محافظات العراق ..

مستخدماً فى ذلك الحجة التاريخية ..

وبعد عشرة أيام .. أى يوم ١٢/٨/١٩٩٠ أعلن صدام حسين أنه على استعداد للانسحاب من الكويت إذا ما انسحبت إسرائيل من الأراضى المحتلة فى فلسطين .. وسحبت أمريكا أى قوات لها فى الخليج .. وكانت هذه هى المرة الأولى منذ بدء الغزو التى تتحدث فيها القيادة العراقية عن قضية فلسطين فى محاولة لربط غزو الكويت بالقضية الفلسطينية بأمل كسب التأييد فى الشارع العربى ..!! وذلك إذا افترضنا حسن النية .. وربما سيضمن استمرار البقاء العراقى فى الكويت توازياً لاستمرار البقاء الإسرائيلى فى فلسطين المحتلة إذا ما افترضنا غير ذلك .

ومع التطورات ارتدت القيادة العراقية عباءة الإسلام .. فأخذت تتباكى على تواجد القوات الأجنبية على أراضى الحجاز المقدسة..!! ومع مزيد من التطورات وبداية المعارك أصبحت عبارة « الله أكبر » جزءاً من العلم العراقى ..!! وكان ذلك من الأمور المؤسفة لأن هذه الإضافة كانت تقتضى أن يظل العلم الذى يحملها مرفوعاً مرفرفاً .. لا منكساً ذليلاً ..

وتعالت أصوات الإعلام العراقى مصورة غزو الكويت على أنه قد أصبح حرباً بين جموع المسلمين وجموع الكفار ..! ومن المفارقات أنه عندما تم لقاء أخير فى يناير ١٩٩١ لإنقاذ الموقف فى جنيف فى اللحظات الأخيرة قبل بدء العمليات كان جيمس بيكر وزير خارجية أمريكا آنذاك هو الممثل لجموع الكفار .. وكان طارق عزيز حنا وزير خارجية العراق ممثلاً لجموع المسلمين ..!!!

ولكن أكبر الأخطاء التى ارتكبتها القيادة العراقية السياسية كان خطأ معنوياً من الصعب للغاية إصلاحه .. فقد زرعت الخوف بل الرعب من العراق فى قلوب أبناء الخليج .

لقد هدد العراق بضرب عواصم دول الخليج : الرياض والمنامة والدوحة وأبو ظبى ومسقط .. بالصواريخ المحملة بالغازات السامة .

وقد أخذ تهديده مأخذ الجد .. ألم يبتلع الكويت أمام أعينهم فى ساعات ..؟ وبدأ كل بيت فى الدوحة يحكم إغلاق نوافذه وأبوابه بشرائط لاصقة بدأت الحملات فى بيعها للناس .. وبدأ كل بيت يجهز غرفة تحتوى على جميع أنواع الأغذية حتى لا يتكرر ما حدث فى الكويت .. وكان الناس فى الدوحة والسعودية وغيرهما يقولون لنا : أنتم فى مصر حضرتم العديد من الحروب منذ الحرب العالمية الأولى فالثانية ثم حرب فلسطين عام ١٩٤٨ و١٩٥٦ و١٩٦٧ و١٩٧٣ .. أما نحن هنا أو فى السعودية أو غيرهما .. فمنذ حرب السيوف للملك عبد العزيز آل سعود .. لا نعرف فى الواقع معنى الحروب الحديثة .. ولا نعرف الخنادق ولا صفارات الإنذار ..

فكان الخوف إذن فى الخليج خوفاً حقيقياً .. كما أن إرسال صدام حسين صواريخه إلى السعودية وإسرائيل .. جعل السعودية تقف مع إسرائيل فى خندق واحد ..!

وبنفس المنطق البسيط كان الناس يقولون : إن إسرائيل هى عدونا الأول .. ولكننا لم نشعر فى أى وقت بأننا محل لتهديد إسرائيل .. إن التهديد الوحيد الذى نلمسه بأعيننا حقيقة واقعة هو تهديد الشقيق لنا ...!!

وكان كل ذلك خطأ فادحاً فى جانب العراق وسوء تقدير

للعواقب والنتائج المترتبة على معاداة كل دول الخليج .

ويضاف إلى ذلك نتيجة غير مباشرة .. فقد بدأت محطة (سي. إن. إن) عملها في نفس توقيت الغزو العراقي للكويت .. وسمحت لها كل دول المنطقة أن تبث مجاناً في أجوائها فكانت ترى كل البيوت كالمحطات المحلية .. ولم تكن الأقمار الصناعية والأطباق قد عرفت أو انتشرت بعد .

وعندما بدأت صواريخ العراق تتجه على استحياء إلى إسرائيل بدأت المحطة الأمريكية تستضيف على شاشتها المسئولين الإسرائيليين ليدلوا بتعليقاتهم .. كما بدأت تنقل آثار الصواريخ العراقية التي أصابت تل أبيب .. وبالتالي بدأ المشاهد الخليجي يتعود على مشاهدة المعلقين والمحللين الإسرائيليين والسماع إلى أقوال الرسميين الإسرائيليين بشكل يومي تقريباً .. وهكذا قدم الغزو العراقي بشكل غير مباشر إسرائيل إلى كل بيت في دول الخليج على مدى سبعة شهور كاملة هي فترة الغزو وحتى تحرير الكويت ..

لعبة قذرة ..!

ولكن القيادة العراقية لم تخطىء فقط في تقديرها وحساباتها ثم إعلامها ، ولكنها حاولت أن تلعب لعبة قذرة للوقيعة بين الجالية المصرية والجاليات الأخرى للدول المؤيدة للعراق وهي تحديداً الجاليات الفلسطينية واليمنية والسودانية في قطر . وهي جاليات كبيرة وإن كانت أقل عدداً من الجالية المصرية .

لقد ظهر الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات رافعاً يده إلى جوار الرئيس العراقي صدام حسين بعلامة النصر ..

وكان ذلك في حد ذاته خطأ كبيراً انعكس على الفلسطينيين المقيمين في دول الخليج كما أنه أعطى الإيحاء لفلسطيني الكويت

حتى لا يقفوا موقفاً محايداً إزاء الغزو العراقى للكويت .

وكان ذلك الموقف الفلسطينى الرسمى أثره المباشر على الفلسطينيين المقيمين فى قطر حيث تم إبعاد الكثيرين منهم إلى تونس وهو ما فعلته دول خليجية أخرى بدرجات متفاوتة .

ورغم أن الأمر كان واضحاً ، فإن سلطات العراق شاءت أن تصطاد فى الماء العكر ، فاختلقت قصة روجتها مؤداها أنه فى أعقاب الغزو فإن رجال الأمن بالسفارة المصرية توجهوا إلى حى « الوكرة » الذى يقطنه الفلسطينيون وكتبوا على جدران بيوتهم عبارات تأييد لصدام حسين مما أثار السلطات القطرية فقامت بإبعاد الفلسطينيين !!

وإمعاناً فى إضفاء مزيد من السخافة على القصة المختلقة قيل إن السفير المصرى فى اجتماعاته بالجالية المصرية كان يحرض أعضاءها على انتهاز فرصة اضطرار الفلسطينيين لمغادرة البلاد وشراء أمتعتهم وسياراتهم بأرخص الأسعار !!

وقد تلقت السفارة منشوراً بهذا المعنى من تونس ولم تعره اهتماماً ..

ولكن بدأت إذاعة بغداد المسموعة جيداً فى قطر تذيع فى المساء أنه علم من مصادر دبلوماسية فى الدوحة « أن السفير عصام الدين حواس هو عميل للمخابرات الأمريكية الـ سى آى إيه والمخابرات الإسرائيلية الموساد - !!! - قد أرسل رجال الأمن من عنده إلى الحى الذى يقطنه الفلسطينيون حيث كتبوا على حوائط البيوت عبارات مؤيدة لصدام حسين مما دفع بالسلطات القطرية إلى إنهاء إقامة الفلسطينيين وترحيلهم من البلاد .. وأنه تم القبض على العملاء المصريين الثلاثة من رجال أمن السفارة وإيداعهم بالسجون القطرية ..»

وعلى الرغم من سذاجة الخبر الذى يناقض نفسه لأنه إذا كانت السلطات القطرية قد ألقت القبض على المصريين الثلاثة المزعومين فلماذا إذن انطلت لعبتهم المزعومة عليها وقامت بترحيل الفلسطينيين ..؟؟

وكما قلت من قبل ، فإن موقف القيادة الفلسطينية من الغزو العراقى للكويت كان كفيلاً بذاته لإثارة كل دول الخليج بغير حاجة إلى افتعال دوافع للإثارة ..

ولكننى - ورغم سذاجة الخبر - رأيت أن إذاعته فى إذاعة بغداد بهذه الطريقة هو أمر خطير بذاته .. فهو يهدف إلى الوقيعة بين الجاليتين المصرية والفلسطينية فى قطر .. وربما هو كذلك تحريض سافر موجه ضد السفارة المصرية التى وصف الراديو السفير بها بأنه عميل للموساد والمخابرات الأمريكية .. وهو أمر لا يجوز السكوت عليه ..

وقد التقيت مساء نفس يوم إذاعة الخبر بالمصادفة بسفير العراق فى عشاء أقامه سفير ألمانيا ..

وكان الحديث الودى الموضوعى الذى دار بيننا فى مكتبى هو آخر ما كان من علاقة بيننا سواء على المستوى الرسمى أو الشخصى .. حيث إنه يبدو أنه كان قد تلقى تعليمات صادرة من بغداد لتبنى مواقف وتبريرات العراق لاجتياح الكويت بصورة متشددة لا تقبل النقاش وأصبح يردد أن العملية هى مؤامرة أمريكية للوصول إلى الخليج بالقوات الأمريكية .. وكنت أعلق ساخراً بأن علينا أن نبطل المؤامرة الأمريكية بالانسحاب من الكويت .. فلن يكون للقوات الأمريكية سبب للتواجد فى المنطقة..!!

وابتدرت السفير العراقى مشيراً إلى ما سمعته ذلك المساء فى إذاعة العراق وعما إذا كان هو المصدر الدبلوماسى الذى أشارت

إليه الإذاعة .. فقال بلهجة لا تخلو من زهو : هذه معلومات حقيقية صحيحة حصلنا عليها من مسئول قطرى كبير ..! وسألته عن اسم ذلك المسئول حيث إننى أعتزم إثارة الموضوع رسمياً صباح اليوم التالى .. ورفض بطبيعة الحال ذكر الاسم المزعوم ..

قلت له إنه من العيب عليه وهو يعرفنى جيداً أن تصفنى إذاعة بغداد بالعمالة لإسرائيل والولايات المتحدة .. فإحمر وجهه خجلاً قائلاً :

إننى لست مصدر هذا الكلام .. أنت تعرف الإعلام ..!!

وفى اليوم التالى طلبت موعداً مع كل من رئيس المخابرات القطرية ووكيل وزير الخارجية القطرية حيث طلبت رسمياً إما تكذيب الخبر الذى أذاعه راديو العراق أو إطلاعى إذا كان الخبر صحيحاً على أسماء المصريين الثلاثة المعتقلين وترتيب زيارة لى لهم بالسجن .

وقد أكدت أننى أثق فى كذب واختلاق تلك القصة ولكنى وجدت من واجبى الاتصال بهم .. وقد نفت لى الجهتان رسمياً تلك الأنباء جملة وتفصيلاً وقال لى رئيس المخابرات إنهم واعون تماماً لمثل هذه المحاولات للوقيعة وسوف يحبطون أى محاولة منها ..

وذكر لى وكيل وزارة الخارجية أننى على دراية بطبيعة الحال بالظروف والضغوط التى يمر بها العراق نتيجة فعلته الشنعاء باحتلال الكويت وأن الخبر عار عن الصحة وليس من سياسة قطر تكذيب كل ما يرد بإذاعة العراق من أكاذيب يومية تاركة ذلك لوعى الناس وفطنة المستمع .. ولكن طالما أننى أثرت الأمر معهم فسوف ينظرون فى طريقة مناسبة لتكذيب الخبر ..

وفى الوقت نفسه فقد اجتمعت بسفراء اليمن والسودان

ومنظمة التحرير الفلسطينية كل على حدة حيث شرحت لهم المحاولات التى يبذلها راديو بغداد للإساءة إلى مصر وللوقيعة بين الجاليات العربية فى الدوحة .. وإننى من جانبى أوضح وأشرح لأبناء الجالية المصرية هذه المحاولات وأوصيهم خيراً بالجاليات الشقيقة الأخرى لأنه فى النهاية ، فالعلاقة فيما بين الشعوب هى الباقية بصرف النظر عن خلافات الحكومات .. ولذلك فإننى أتوقع منهم أن يفعلوا نفس الشىء مع جالياتهم .

وقد لقيت من السفراء الثلاثة تجاوباً كاملاً .. وبالفعل لم تحدث طوال شهر الأزمة أى شائبة صغيرة تعكر العلاقات بين الجالية المصرية وأى من الجاليات العربية الأخرى فى قطر .

وكان مسئول الخارجية القطرية عند كلمته إذ ما لبث رئيس تحرير صحيفة « الشرق » القطرية ناصر العثمان وهو من الشباب القطرى الممتلىء وطنية وعروبة .. أن كتب مقالاً رئيسياً فى صفحة كاملة تناول فيه المزاعم المختلقة مشيراً إلى النشرة التى وزعت فى تونس من منظمة التحرير الفلسطينية ومتجاهلاً إذاعة العراق .. ودافع ناصر دفاعاً مجيداً عن مصر وعن دورها وعن السفير المصرى بالدوحة والموقف البناء الذى وقفته الجالية المصرية تدعيماً لقطر وتضامناً مع الشعب القطرى فى معركته ضد العدوان ..

بداية العد التنازلى

حدد مجلس الأمن الدولى فى قراره رقم ٦٧٨ الصادر فى يناير ١٩٩١ تاريخ ١٥ يناير ١٩٩١ كموعد نهائى لانسحاب القوات العراقية من الكويت وعودة الشرعية إليها .

ومفهوم قرار مجلس الأمن هو أن للكويت استدعاء حلفاء لها فى إطار المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة الخاصة بالدفاع

الشـرعى لاتخـاذ كافـة السـبل ـ بما فى ذلك اسـتـخدام القـوة ـ لتحرير أراضيها .

وبذلك بدأ العد التنازلى للمعركـة الفاصلة للتحرير .. وكان أول نداء وجه للعراق مع بداية عـام ١٩٩١ هو نداء من الرئيس مبارك صدر صباح يوم ١ يناير ١٩٩١ .

وقد وجهت إلى صحيفة العرب القطرية بتاريخ ٤ يناير ١٩٩١ سؤالاً حول الموعد الذى حدده مجلس الأمن وهو ١٥ يناير ١٩٩١ موعداً نهائياً للانسحاب فعلقت بالآتى :

– قـرار مجلس الأمـن الدولى رقم ٦٧٨ هو تعـبيـر عن إرادة المجتمـع الدولى وهو كغيره من قـرارات المجلس التى صدرت فى أزمـة الخليج قـرار ملزم واجب التطبـيق . وقـد تطابقت قـرارات مجلس الأمن الـدولى مع قرارات القمـة العربيـة التى صدرت فى القـاهرة فى العاشـر من شهـر أغسطس ١٩٩٠ . وقـد آن الأوان لتسـتجيب القـيادة العراقيـة لنداءات السلام المتعـددة التى وجهت إليهـا من كل أنحاء الأمـة العربيـة بل ومن كافـة أرجاء المعـمورة وآخرها نداء القمـة الخليجية الحادية عشـرة فى الأسبوع الماضى حـتى يمكن إعـادة الحق إلى نصابـه بالانسـحـاب الكامل وعـودة الشرعـية وتجنيب الشعب الـعراقى والمنطقة ويلات حـرب جديدة ودمار لا مـعنى لهمـا ، ولإتاحة الفرصـة للأمة العربـية لتوجـيه طاقاتها نحو البناء والتعمير وحل قضاياها الرئيسـية وعلى رأسـها القـضيـة الفلسطـينية ومطـالبة المجـتـمع الدولى باتخـاذ الموقف الواضح والحازم الذى يعـيد الحقـوق الفلسطينية إلى أهلها وفـقاً للقرارات الدولية العديدة فى هذا الشأن .

وبمناسـبـة الإعـلان عن ترحـيل بـعض العـائلات الأمـريكيـة والأوروبية عن قطر أعلنت فى ٥ يـناير ١٩٩١ أنه ليست هناك أية

توجيهات رسمية للمصريين العاملين فى قطر لمغادرة أعمالهم فى المرحلة الراهنة ـ وأضفت أن الجالية المصرية هى جزء من التركيبة السكانية بدولة قطر ، ولها دور محورى فى الجهود التنموية وتتحمل مسئوليتها فى هذا الخصوص جنباً إلى جنب مع الشعب القطرى .

وأضفت أن أبناء مصر يشاركون بواجبهم فى الجبهة دفاعاً عن قضية الشعب الكويتى باعتبارها قضية عربية وأن أمن دول الخليج جزء من الأمن القومى المصرى .

وأوضحت أن الأيام القليلة المقبلة تمثل مرحلة حاسمة فى أزمة الخليج خصوصاً فى ظل التصميم الدولى على التطبيق الكامل لقرارات مجلس الأمن والتى تتفق مع مقررات القمة العربية بالقاهرة معرباً عن الأمل فى استجابة القيادة العراقية لإرادة المجتمع الدولى ولنداءات السلام التى كان آخرها نداء الرئيس مبارك فى مطلع العام الحالى حفاظاً على الشعب العراقى أولاً وتجنباً لمخاطر الحرب التى ستصيب المنطقة بالدمار وتؤثر على استقرارها وأمنها حتى يتفرغ الوطن العربى لقضاياه المصيرية ولمواكبة المتغيرات العالمية .

وجددت تأييد الجالية المصرية لمواقف الرئيس مبارك المبدئية والمشرفة والأخلاقية من الأزمة من بدايتها والتى ترتكز على ضرورة الانسحاب الفورى من الكويت وعودة الشرعية إليها كما جددت تضامن الجالية المصرية الكامل ومشاركتها الفعالة لدولة قطر الشقيقة وأنها تضع كل إمكانياتها تحت تصرف أمير قطر وحكومتها وشعبها للحفاظ على أمنها وسلامتها .

الساعات الأخيرة قبل بدء المعركة
اجتماع للجالية المصرية

كانت ساعة الصفر تقترب وقد تواترت الأنباء عن ترحيل عائلات بعض الأجانب من قطر ، كما أذيعت أنباء عن ترحيل للجاليات المصرية فى البحرين والسعودية .

ولذلك فكرت فى الدعوة إلى لقاء عام بالجالية المصرية لإطلاعهم على الموقف السياسى والعسكرى وفى الوقت نفسه لتحسس مشاعر الناس وما إذا كان القلق ينتابهم نتيجة الإعلام العراقى المكثف والحرب النفسية التى شنتها القيادة العراقية والتهديدات التى وجهتها إلى دول المنطقة وشعوبها .

وبالفعل تم اللقاء مع أبناء الجالية فى البهو الرئيسى للسفارة وخصصت الشرفات العلوية للسيدات وجلست فيها معهن زوجتى وابنتى الوسطى سحر حواس أستاذة اللغة والآداب الإنجليزية وحضر اللقاء المئات من المصريين من مختلف المهن حتى ضاق بهم المكان ووقف الكثيرون منهم خارج البهو بل وخارج مبنى السفارة نفسه واستعنا بمكبر صغير للصوت يسمح لهم بمتابعة اللقاء .

وبعد أن شرحت الوضع لهم قلت إن السفارة لن تعد من جانبها خطة لترحيل المصريين ولكنها سوف تساعد من يشعر بأنه يرغب فى العودة إلى مصر على تدبير أمر سفره .. فالقرار متروك لكل مصرى حسب تقديره لإمكانيته فى مواجهة أية تطورات .. هو وعائلته .. ولكننى لن أضمن له أن يعود إلى موقعه بعد انقضاء الأزمة .. وأننى شخصياً موجود بالدوحة وعائلتى موجودة معى ولن أغادرها مهما كانت الظروف ..

وقد توالى المتحدثون معلنين أنهم مع شعب قطر فى السراء وفى الضراء .. وقالوا إن الجالية المصرية تمثل شريحة لها وزنها فى المجتمع القطرى .. وأنهم لن يتخلوا عن الشعب القطرى

المضياف الكريم في لحظات الشدة .. وتلك هي الأخلاق المصرية الأصيلة .

وقد بلغ حماس العمال المصريين الحاضرين أن طالبوا السفارة بفتح دفاتر لقيد أسمائهم وأسماء مَنْ يتطوع للدفاع عن قطر وكذلك للمشاركة في شرف تحرير الكويت ، وقد أمرت بذلك وتم إعداد دفاتر التطوع قبل انتهاء الاجتماع .

واقعتان طريفتان حدثتا خلال هذا الاجتماع الحاشد والحماسي ، ولم أعرف بهما إلا بعد انفضاض الاجتماع .!!

أما الواقعة الأولى : فهي أنني أثناء كلمتي توجهت سكرتيرة السفارة إلى زوجتي في شرفة السيدات وهي بادية الارتباك الشديد وهمست في أذنها أنها تلقت مكالمة الآن من مجهول يقول فيها إن هناك « قنبلة ذرية » بالسفارة سوف تنفجر بعد قليل ..!!

وتبينت زوجتي بسرعة أن الهدف من تلك المكالمة هو إحداث هرج ومرج وبالتالي إفشال اللقاء مع الجالية المصرية . وربما ساعدها على ذلك إلهام المرأة وصيغة المبالغة التي تضمنتها المكالمة بالحديث عن « قنبلة ذرية » .. مما يدل على جهل المتحدث . فطلبت من السكرتيرة أن تلزم الهدوء وألا تخبر أحداً وأنها أي زوجتي سوف تعالج الأمر وتخبرني بالشكل المناسب .. وقد أبلغتني زوجتي بالفعل بعد انتهاء الاجتماع بنجاح ..!!

أما الواقعة الثانية : فقد روتها ابنتي التي كانت تجلس بين بعض السيدات على مسافة من المكان الذي تجلس فيه زوجتي .. وكانت قد وصلت من القاهرة إلى الدوحة في اليوم السابق على الاجتماع .. ولم يكن وجهها مألوفاً بعد للسيدات الحاضرات . وقالت لي سحر بعد الاجتماع ضاحكة :

– « عندما كنت تقول للناس أنك شخصياً وعائلتك موجودون في الدوحة ولن تغادرها مهما كانت الظروف .. وأن ابنتك حضرت

إلى الدوحة أمس .. مالت إحدى السيدات عليها وعلى سيدة تجلس بجوارها وعلقت فى همس .. هكذا يقول السفير وأنا واثقة أنه توجد فى حديقة بيته طائرة مروحية جاهزة لنقله وأسرته عند أول إشارة ..!!

وضحكت سحر وقالت لها :

- أنا شخصياً لا أظن ذلك ..! »

وانتهى الأمر على ذلك .. وهو تعليق يدل على أن رواسب عدم الثقة لا تزال عالقة فى أذهان البعض .. وما زال هناك مَنْ يقول إنه فى أى رحلة له فى الخارج لا يضع قدمه فى السفارة المصرية أو حتى يقترب منها بأى حال حتى يتجنب المشاكل ..!! وتلك قضية أخرى يطول الحديث فيها ...

ما بعد الكارثة ..

إن توابع المغامرة العراقية فى الكويت استمرت بعد ذلك وحتى اليوم ..

وكان هناك مَنْ يدعو بعد تحرير الكويت إلى عدم فتح الباب لتصفية الحسابات حتى يتم لم الشمل ورأب الصدع ..

وكان من أوائل الداعين لذلك الرئيس مبارك فى نداء قومى وجهه إلى الأمة العربية ..

وكان لى رأى مخالف أعلنته فى مقال لى بعنوان :

« بعد العاصفة » نشر فى الأهرام فى أبريل ١٩٩١ كما نشر فى « العرب » القطرية فى نفس التوقيت جاء به :

« إذا كانت الدعوة إلى عدم فتح الباب لتصفية الحسابات هى دعوة حق تستهدف لم الشمل ورأب الصدع .. فإنها لا يمكن أن تعنى أن نغلق أعيننا عن الكارثة التى حاقت بالأمة العربية فى الثانى من أغسطس ١٩٩٠ وجثمت على صدرها طوال سبعة شهور كاملة بأيامها القاتمة ولياليها السوداء ..

بل إن الرئيس مبارك وهو أول من وجه هذه الدعوة فى ندائه القومى إلى الأمة العربية .. قد دعا فى الوقت نفسه إلى مراجعة النفس عندما أعلن بوضوح :

« وقفة مع النفس يا كل أمة العرب ..

وقفة ودراسة متعمقة تنفذ إلى الأعماق ..

وتتحدث بالصدق والمصارحة .. وتتعامل بطهارة القول والعمل » .

ولن نكون قد قمنا بواجبنا حيال الأجيال القادمة إذا لم نستخلص العبر والدروس المستفادة مما حدث .. وأعتقد أن تلك مسئولية ضخمة لا تقع على عاتق القيادة السياسية وحدها .. وإنما تقع على عاتق المثقفين العرب على أوسع نطاق .. بحيث تشمل المراجعة لكل الأوضاع العربية السائدة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً .. وهذه مهمة ضخمة لا يمكن أن يتصدى لها جهد شخص واحد » .

وقد سألت نفسى وأنا أعيد اليوم قراءة هذه الأوراق والتصريحات التى أدليت بها وقت وقوع الأحداث منذ اثنى عشر عاماً .. هل كنت متجنياً على القيادة العراقية أو على الأقل منفعلاً عاطفياً ضد عملية غزو الكويت .. وقد عشتها لحظة بلحظة فى موقع الأحداث ..؟؟

ولكننى عثرت على حديث أدليت به بصحيفة «الشرق» القطرية بعد مرور عام كامل على الغزو أى فى أغسطس ١٩٩١ حيث سئلت :

س : ما هى الدروس المستفادة من يوم ٢ أغسطس ٩٠ ؟

ولم تختلف إجابتى بعد انتهاء الأزمة عن الخطوط العريضة لما قلته لحظات وقوعها واستمرارها .

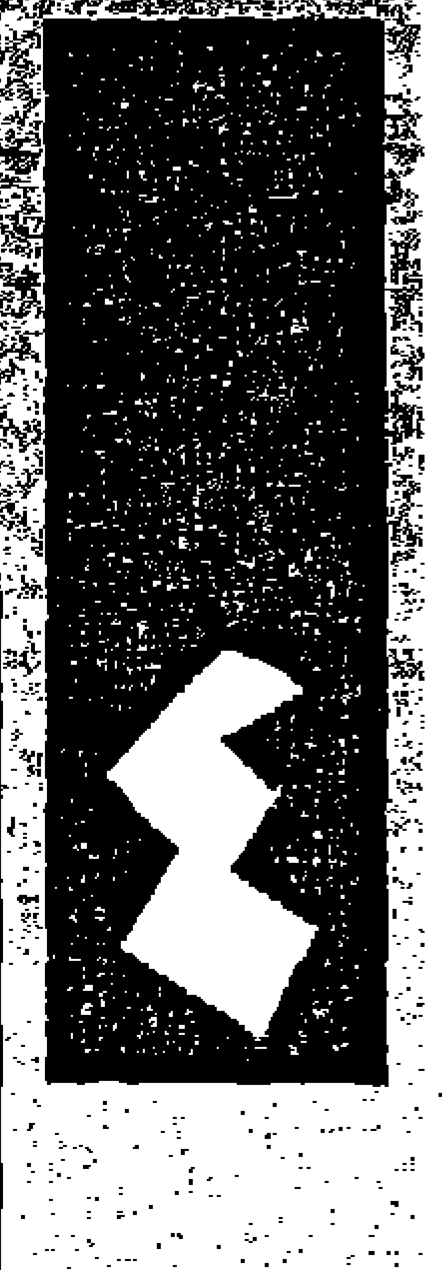
وفى مايو ١٩٩٣ التقيت بالدكتور عصمت عبد المجيد فى

الرياض كان هو قادماً من دمشق .. وكنت أنا قادم من الإمارات العربية فى رحلة عمل بالخليج .. وكان كل منا قد ترك العمل الدبلوماسى بوزارة الخارجية .. كان هو أميناً عاماً للجامعة العربية وكنت مستشاراً للشئون القانونية والدولية .. ومحامياً دولياً ولدى القضاء المصرى .. وشاءت الظروف الحسنة أن نلتقى أكثر من مرة خارج مصر .. ورحب بى الدكتور عصمت عبدالمجيد وذكر لى أنه سيعقد مساء مؤتمراً صحفياً ويسعده أن أحضر معه إذا ما سمح وقتى بذلك ..

وفى المؤتمر الصحفى أعلن الدكتور عصمت عبد المجيد أنه لكى يمكن تصفية آثار الغزو العراقى للكويت يجب فتح الملف بأكمله ومناقشة كل ما يحتويه بشفافية وبغير مجاملات ورفع بذلك شعار .. « المصارحة قبل المصالحة » .. وكان ذلك حقيقياً .. فلم تكن هناك فائدة فى الدعوة إلى إغماض العين عما حدث رغم ضخامته وبشاعته .. وفى مواقف كل دولة عربية إزاءه .. حيث إن بعض تلك المواقف قد شجعت على تفاقم الأمور وليست تهدئتها .. وشجعت المعتدى على الاستمرار فى عدوانه .

كان يتعين إجراء مناقشات تفصيلية لما حدث وتحديد الأخطاء والمخطىء من الجانبين .. وأخذ التعهدات والضمانات بحيث لا يصبح هناك أى احتمال لتكرار ذلك النموذج الفتاك الذى أعاد الأمة العربية سنوات عديدة إلى الوراء ..

ومضت السنون .. وفى أغسطس عام ٢٠٠٢ سئلت من صحيفة « الأخبار » التعليق على الذكرى الثانية عشرة لغزو الكويت .. ولم أجد أفضل مما صرحت به للصحف القطرية يوم ١٩٩٠/٨/٦ .. ولا خيراً من الشعار الذى أطلقه الدكتور عصمت عبدالمجيد فى مؤتمره الصحفى فى يونيو ١٩٩٣ .. « المصارحة قبل المصالحة » ..!!



دور المـــــرأة فـــى حيـــاة الدبلوماسى

من مذكرات سفير سابق

إذا كان للمرأة دور مهم فى حياة الأمة وتقدمها باعتبارها تمثل نصف السكان .. وبحكم مشاركتها الرئيسية فى تربية النشء ورجال المستقبل ..

إذا كان ذلك كذلك .. فإنه فى خصوصية العمل الدبلوماسى، فإن دور المرأة له أهمية خاصة .. لأنها ببساطة تمثل نصف المجتمع المصرى فى الخارج .. ولذلك، فإن كثيراً من الدول ومن بينها مصر لا تسمح بأن تعمل المرأة فى الدولة التى يمثل زوجها مصر فيها .. وهذا الحظر له جانب مهنى وهو ألا تعتمد الأسرة على دخل للمعيشة يكون جانب مهم منه مدفوعاً من الدولة الأخرى .. ولكن الجانب الأهم يتصل بحقيقة أن زوجة الدبلوماسى يكون كامل وقتها مشغولاً مع زوجها . فمن المعروف أن الدبلوماسى عامة ليس له وقت للعمل ووقت لحياته الخاصة الشخصية .. ذلك أن كل حياة الدبلوماسى فى الخارج هى جزء من عمله . فهو إذا دعى للعشاء أو الغداء فذلك جزء من عمله .. وإذا ما خرج ليمارس بعض الرياضة مثل : التنس أو السباحة أو الجولف .. فذلك أيضاً جزء من عمله .. وإذا خرج فى نزهة مع أسرته أو قام برحلة داخل البلاد المعتمد فيها فهو أيضاً فى جانب من ذلك فى مجال العمل .. وإذا ما دعا أصدقاء إلى بيته سواء كانوا من زملائه الدبلوماسيين أو من أهل البلد الذى يعمل فيه فذلك إذن من صميم عمله .. وفى كل ذلك، فإن زوجته شريكة

معه تتحمل جانباً كبيراً من المهمة بحكم كونها شريكة حياته ..

وأذكر أن أول سفير عملت معـه بالخارج فى بولندا وعاصمتها وارسو سنة ١٩٥٩ وهو السـفير حـسين عمر شـريف وكان عند قيام الثورة أمـيرالاى بسلاح الفرسان بالجيش وكـان يمثل مصر فى مباريات ومـؤتمرات الفروسية العالميـة فى بروكس . وكان قد حـصل على تعليـمه فى الـسوربون بفـرنسـا ولذلك عين فى أول الثورة ملحقـاً عسكرياً فى باريس ثم سفيـراً فى وارسو .. وكان السفير حسين شريف وزوجـته راجية هانم – وهى بالمناسبة من العائلة المالكة فى مصـر – كانا أحسن (زوج) فيمـا بين السفراء الأجانب المعـتمدين فى وارسـو .. وذلك بشهـادة كل من كانت له صلة بالسلك الدبلوماسى الأجنبى فى العاصـمة البولندية .. وكانا إذا ما دعيا الناس إلى العشاء فى بيتهم يجلسان قبل موعد العشاء بساعة وبيد كل منهما أحد أجزاء دائرة المعارف الفرنسية (الانسا يلكو بيديا) .. حيث يفتحها على أى صفـحة ويختار كلمة جزافية مثل « شـجرة التوت » أو « أنواع التـخدير فى الطب » أو « زهرة اللوتس » أو « الأوركيد » أو « معركة واترلو » أو « نبات البردى » أو غيـر ذلك من الموضوعـات .. ويقرأ كل منهـما كل مـا كتب فى دائرة المعـارف عن الموضـوع .. وعنـد العـشـاء وبعـد أن يجلس الضيوف حول المائـدة تبدأ راجية هانم من ناحية والسـفير حسين شريف من الناحية المقابلة فى فـتح الحديث مع الضيوف المحيطين بهما حول الموضوع الذى أعده كل منهما .. وسيكون بالتأكيد أكثر الحاضرين علماً به حيث ينطلق فى شـرح خبايا الموضوع وأبعاده وتفاصيله وسط إعجـاب الحاضرين وانبهارهم بالثقـافة الواسعة والمعلومات الدافـقة للسفـير المصرى وحرمـه وحسن اختيـارهما للموضوعات الطريفـة وعرضهما الشيق لها الذى يفيـد المستمعين إليهـما ..!! وقـد شاركت زوجـتى ليلى رحمى – منـذ اليوم الأول لالتحاقى بوزارة الخـارجية – خبرة العـمل الدبلوماسـى معى فى

مجالاته المختلفة .. وعندما نقلت فى يوليو ١٩٥٩ للعمل فى بولندا حرصت على أن تكون الأسرة المكونة من زوجتى وأنا وابنتنا هالة معاً فى بلاد الغربة منذ اليوم الأول ..

حقيقة كانت بولندا دولة شيوعية من دول «اليسار الحديدى».. وحقيقة كانت ظروف الحياة والسكن بالذات قاسية .. وكانت الحكومة هى الجهة الوحيدة التى تحدد لكل دبلوماسى جديد سكنه .. وكان ذلك يستغرق بين ستة أشهر فى أحسن الفروض وعامين ..

ولكننى كنت وما زلت أعتقد أن مشاركة الزوجين أو الأسرة الصغيرة فى مواجهة المصاعب معاً .. تخلق منهم نسيجاً قوياً للمستقبل .. وكنا على اتفاق منذ البداية على أننا معاً .. فى السراء .. والضراء ..!

وسوف أروى فيما يلى أكثر من واقعة حدثت فى أماكن مختلفة من العالم وكل منها تصلح أن تروى على حدة ضمن فصل « حكايات دبلوماسية » .. ولكننى أركز فى كل منها على دور المرأة حيث كانت مشاركتها أساسية وساهمت فى نجاح العمل الدبلوماسى المصرى ...

١ - وضجت القاعة بالتصفيق للمرأة المصرية ..!

ومازلنا فى بولندا ومازلنا مع دور المرأة فى حياة الدبلوماسى .. حيث وجهت لى جامعة « تورن » بشمال بولندا على بعد حوالى ٢٠٠ كيلومتر من وارسو العاصمة الدعوة لعمل محاضرة عن الجمهورية العربية المتحدة .. وقد اصطحبت زوجتى إلى المدينة الشمالية حيث التقيت بالطلبة وهيئة التدريس فى إحدى القاعات الرئيسية بالجامعة وقد اكتظت بالشباب الذين حضروا ليعرفوا شيئاً عن هذه البلاد النائية التى درسوا تاريخها وحضارتها .. ولكن معلوماتهم عن مصر الحديثة كانت محدودة .. ولذلك فقد تابعوا باهتمام الحديث الذى تناول مختلف جوانب

الحياة في بلادنا اقتصادياً وثقافياً وسياسياً .. كما أعجبوا بالشرائح الملونة التى عرضتها عليهم .. وبعد انتهاء المحاضرة فتحت الباب للأسئلة .. فتوجه إلىّ واحد خبيث سؤالاً عن وضع المرأة المصرية .. وكانت لهجة السائل الساخرة تدل على ما يدور بخلده .. وما يحاول أن يوحى به للحاضرين .. ولم أشأ أن أجعله ينال مراده أو أن أبدأ فى اتخاذ موقف دفاعي وإنما بادرته بالرد الآتى وسط استغراب الحاضرين . قلت :

– إن المرأة فى بلادنا ملك خاص للرجل .. ومكانها الذى لا تتركه هو البيت .. وإذا خرجت فترتدى غطاء شاملاً ليس به إلا فتحتين ضيقتين للنظر منهما .. وهي عنصر معطل متخلف وعالة على المجتمع !! ثم استطردت مستدركاً :

– ذلك هو ما يقصده وما يشيعه بعض المغرضين عن المرأة فى بلادنا.. ولكننى لن أذهب بعيداً.. ويكفينى أن أقدم لكم زوجتى التى تجلس على المنصة خلفي.. وقد أتت من مصر وقطعت آلاف الأميال لتشاركنى هذه الأمسية المتعة معكم.. إنها هنا تمثل المرأة المصرية..!!

وبطبيعة الحال حدث رد الفعل الذى توقعته حيث ضجت القاعة بالتصفيق الحاد لزوجتى !!.. وفى الحقيقة للمرأة المصرية ...!

وأسقط فى يد صاحب السؤال .. وكان ذلك يكفى رداً عليه لإسكاته .. ولكننى بعد أن هدأت القاعة بدأت أشرح للحضور النهضة النسائية التى بدأتها هدى شعراوى فى أوائل القرن .. ومشاركة المرأة فى ثورة ١٩١٩ .. ثم كيف أن المرأة دخلت الجامعة والمدارس والتحقت بالعمل كطبيبة ومهندسة ومحامية وفى سائر نواحى الحياة .. وأنها أصبحت كذلك دبلوماسية ووزيرة ..!

وهكذا ، فإن مجرد وجود زوجة الدبلوماسى معه فى الخارج.. هو تمثيل حى للمرأة المصرية .. ومع ذلك، فإن للمرأة أدواراً أخرى أكثر إيجابية من مجرد التواجد مع زوجها الدبلوماسى ..

٢- عندما تفوقت مصر على أمريكا وبريطانيا والإتحاد السوفيتى

كنا فى ماليزيا .. عام ١٩٦٨ .. عندما وجهت جامعة كوالالمبور الدعوة إلى السفارات المقيمة فى العاصمة للاشتراك فى المهرجان الثقافى السنوى الذى تقيمه الجامعة ..

وقد بعثنا إلى الوزارة وإلى إدارة المعارض بالقاهرة لموافاتنا ببعض المعروضات وكذلك إلى الشركة الشرقية للدخان لإرسال عينات من علب السجائر المصرية ..

وفى الحقيقة، فإننا كنا نعرف أنه يجب الاعتماد على النفس فى المشاركة المصرية .. فمن ناحية كانت إدارة المعارض تشترط للمشاركة فى مثل هذا المهرجان أن تخطر قبل الحدث بعام على الأقل حتى يمكن وضعه فى الخطة .. ومن ناحية أخرى كنا نشفق على الحكومة المصرية أن تتحمل بأى أعباء مادية نظير مثل هذه المشاركة ..

ولذلك رتبنا أنفسنا على الاعتماد الذاتى .. ودعونا لاجتماع لأبناء الجالية المصرية تشارك فيه السيدات . وتولت زوجتى التنسيق مع السيدات للمساهمة فى نجاح الجناح المصرى فى المهرجان .. وأنشأت لجنة نسائية لإعداد الجناح المصرى .. واتفق على أن تقدم كل سيدة ما لديها فى بيتها من منتجات خان الخليلى المصرى من أطباق مزركشة وأوان وحلى للزينة للعرض فقط .. وقدمنا كذلك من السفارة بعض الصور المصرية الملونة عن المناظر الطبيعية والآثار الفرعونية والإسلامية والنهضة العمرانية والصناعية .. وقد استخدمنا فيها نتيجة كانت شركة مصر للطيران توزعها .. وكانت الميزة فى تلك الصور أنه يمكن إضاءتها بوضع أنوار خلفها ..

كما زودت السفارة الجناح المصرى بمئات الكتيبات التى كانت معدة بواسطة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى القاهرة

للتوزيع على المسلمين فى البلاد التى بها جاليات إسلامية كبيرة .. وهى كتب باللغة الإنجليزية تتحدث بأسلوب مبسط عن أركان الإسلام .. مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج .. ولما كان الناس قد تعودوا أن يجمعوا المنشورات والكتيبات التى توزع فى المعارض المماثلة .. ثم يلقون بها عند أول منعطف بعد مغادرة الجناح .. فقد اتفقنا على وضع ثمن رمزى لكل كتيب مثل ٢٥قرشاً .. وتخصص الحصيلة لدعم صندوق الطلبة الملاويين .. وبذلك نضمن ألا يلقى أحد بأى نشرة مصرية خارج الجناح بعد أن يكون دفع ثمناً لها ولو قروش زهيدة ..! وقد حدث ذلك بالفعل ..

وكمشاركة شخصية من جانبى أعددت بعض اللوحات الصغيرة من رسم اليد بعنوان « المعرض الصغير Mini - Exebit» تحمل صوراً تمثل الكفاح لتحرير أرضنا من الاحتلال الإسرائيلى وكذلك كفاح الشعب الفلسطينى إحداها بعنوان : « الأطفال لا يموتون » عن الغارة على مدرسة بحر البقر ويظهر فيها الأطفال محلقين فى السماء بأجنحة الملائكة وفى أسفل الصورة وجوه جولدا مائير وموشى ديان وقد ظهرت لهما أنياب ملطخة بالدماء ..

ولوحة أخرى عن حرب الاستنزاف على قناة السويس وثالثة لسيدة فلسطينية مسنة تقول « كل أحفادى فتح .. » !! وكانت منظمة فتح حديثة الظهور قبل شهور قليلة .. وفى اليوم المحدد لبدء إعداد الأجنحة توجهت وزوجتى وأعضاء لجنة الإعداد إلى موقع المعرض وبدأنا فى إعداد الجناح المصرى ..

وأخذت جولة على الأقدام لأتفقد الأجنحة الأخرى وخاصة للدول الكبرى ..

كان الجناح الأمريكى يركز على صعود أمريكا إلى الفضاء والهبوط على سطح القمر .. بعنوان « الإنسان فوق القمر Man

on the Moon » ويعرض صوراً فوتوغرافيــة كبيرة لرواد الفضـاء الأمريكيين بملابس الفضـاء .. كما يعرض لحجـارة حقيقية بيضاء اللون تم جمعها من سطح القمر ..!!

وكان الجـناح البريطانى يركـز على الجوانب الثـقافـية حـيث عـرض لآخـر طبـعة من دائـرة المعارف الـبريطـانية الـشـهـيـرة وملحقـاتها وللكتب العلمية البـريطانية .. ولا عجب ، فإن مـاليزيا ظلت لسنوات طويلة تحت الحكم البريطانى ..!!

أما الاتحاد السوفيتى فقد وجه خطابه إلى التوجه الذى كان قد بدأ فى ماليـزيا نحو التصنيع .. فـركز جناحه على عـرض لمعدات صناعيـة سوفيتـية ضخمـة وحديثة .. بالإضافـة إلى نشرات عن التقدم الصناعى فى الاتحاد السوفيتى ..

وقد قـررت بعد الذى رأيته أن الجناح المصـرى يتجه الوجـهة الصحـيحة .. فـإننا نتفوق فى مـجال الثقـافة والحضـارة وكذلك الريادة فى الـدين الإسـلامى وعلومـه .. ولكننى كنت قلـقاً من ضخامة إمكانيـات الدول الكبرى وأن أجنحتها قد تجـذب جمهور المشـاهدين على حسـاب جناحنا .. فـفكرت بسرعـة فى إضافـات لجناحنا تجعله أكثر اجتذاباً للناس ..

فقـمنا أولاً بعمل عـدة نسخ للبيع من تسـجيلات عـلى شرائط كاسيت لمدة عشر دقائق للشيخ محمد رفعت ..

كـما حـصلنا من السـفارة على مـجموعـتين من الاسطوانات للمـصحف المرتل بكل مـجمـوعة ٦٠ أسطوانة كـبيـرة لتبـاع كل اسطوانة على حدة وأضـفنا هذه المواد الدينية إلى قائمـة ما يمكن شـراؤه من الجناح المـصـرى على أن تذهب الحـصـيلة لصـالح المجهود الحربى ..

أما الفكرة الثانية، فهى أن نعطى لكل مَنْ يدخل الجناح المصرى شهادة تذكـارية بذلك محدداً بها الـيوم والساعة .. ويظهر عـليها اسمه باللغـة العربية .. وقمنا بطباعة نوعين من الشـهادات إحداها

صـورة الأزهر الشـريف ليحـصل عليـهـا الملاويون المسلمـون .. والأخرى تحمل صـورة معبد أبو سمبل لتمنح للماليزيين من أصل صـينى أو هندى وهم غالبـاً من البـوذيين .. ويكتب عليهـا الاسم باللغة العربية .. وفى اليوم المحدد لافتتاح المهرجان وصلت رسالة من سجائر كلـيوباترا المصرية إلى مطار وارسو أرسلت مـباشرة من المطار إلى المهـرجان .. لتـقـوم بتقـديمها إلـى الضيـوف بنتنا الوسطى سحر على صينية مصرية من الفضة وقد ارتدت ملابس ريفية مصرية أعدتها لها زوجتى ..

ووقفت السيدة فوقية حرم السفير المصرى خير الدين نصار ، وزوجـتى ، وسيـدات من زوجات الأطبـاء المصريين العـاملين فى مـاليزيا يسـتقـبلون الضيـوف فى الجناح المصـرى ويقمن ببـيع المعـروضـات المخـصـصـة للبـيع .. وفى ركـن من الجناح جلس « أحمد » سكرتيـر السفارة الملاوى الماليزى الجنسـية على مكتب صغير كتب خلفه (اكتب اسمك باللغة العربية ..!) .

ورغم اطمئناننا على سـلامة الترتيـبات التى قمنا بها لإضـفاء الجـاذبية على الجناح المصـرى إلا أننا لم نتـوقع النجاح السـاحق الذى حقـقه جناحنا منذ اللحظة الأولى لافـتتـاح المهرجان .. فـقد اصطف أمـام الجناح المصـرى طابور طويل من الماليـزيين رجـالاً ونسـاء وشـبابـاً مـن العنصـرين الملاوى والصـينى الأصل كلهم يبتغون الحصول على الشـهادة التذكارية التى تحمل اسمهم باللغة العـربيـة .!! وهو بالمناسـبة طـابور استـمـر طوال الأيام الثـلاثة للمهرجان .. الأمر الذى اضطرنا إلى طبـاعة عدة آلاف إضـافية من الشـهادة التذكارية بنوعيها الإسلامى والفرعونى ..

أمـا السجـائر والمعـروضـات المصريـة بما فى ذلك الكتـيبـات والإسطوانات والشـرائط فـقـد اخـتفت أولاً بـأول كل كمـيـة تم إظهـارها .. مما دفع بعض السيـدات فى اليـومين الثانى والثـالث للمهرجان إلى التـبرع ببعض المعروضات المقدمـة منهن للمهرجان

والسماح ببيعها لصالح المجهود الحربي ..

وفي الوقت نفسه لم توجد في فناء الجامعة أي ورقة ملقاة من المعرض المصري ..!

وبقدر ما شعرنا بالفخر للجناح المصري .. بقدر ما أشفقنا على الأجنحة الأمريكي والسوفيتي والبريطاني للجهد الواضح والنفقات الكبيرة التي بذلت لإعدادها .. وكان رواد هذه الأجنحة أفراداً قلائل لا يزيد عددهم في لحظة واحدة على أصابع اليد الواحدة ..!!

ولكن كانت هذه هي مصر .. في مجال الثقافة والحضارة .. هي الأولى دائماً بغير منازع ..!

وفي اليوم الأخير للمعرض .. حضر إليَّ الملحق الثقافي البريطاني .. قائلاً : أعترف بالهزيمة وأهنئكم بالنجاح الباهر .. ثم همس في أذني قائلاً :

– أنا واثق أنكم تنفقون الكثير هنا .. ونظرت إليه بابتسامة كبيرة وقلت له :

– أنا واثق أنني لو شرحت لك فلن تفهم ..! وإذا فهمت فلن تصدق ..!!

وابتسم ابتسامة باهتة .. وغمز بعينه اليمنى .. ثم انصرف لحاله .....!!!

٣ - فصول لتعليم اللغة العربية للكبار في ماليزيا

عندما تسلمت عملي في كوالالمبور في يناير ١٩٦٨ .. كان هناك مبعوثان من الأزهر الشريف هما الشيخ عبد الرؤوف ويقيم في كوالالمبور ويدرس في الجامعة الإسلامية بكوالالمبور والثاني هو الشيخ عبد الفتاح عامر ويدرس بالكلية الإسلامية بولاية كلانتن على بعد ستمائة كيلومتر شمال العاصمة الماليزية .

ولما كانت ماليزيا مكونة من ثلاث عشرة ولاية ، وكان

المسلمون فيها يشكلون الأغلبية من السكان، فقد طلبت من الأزهر الشريف دعم البعثة الأزهرية بأربعة آخرين من علماء الأزهر الأفاضل . واستجاب الأزهر مشكوراً مقدراً الاعتبارات التى عززت بها السفارة طلبها .

وبوصول العلماء الأربعة أمكن تعزيز الجامعة الإسلامية بالعاصمة بمبعوث ثان وتوزيع الباقين على الولايات الأخرى .

وقد شجعنا وصول علماء الأزهر الأربعة الجدد مع وجود عشرة أطباء مصريين بعائلاتهم على إنشاء رابطة للجالية العربية بماليزيا تتكون من :

(أ) مواطنو الجمهورية العربية المتحدة :

٦ من علماء الأزهر بعائلاتهم

١٠ أطباء بعائلاتهم

٤ خبراء فى الأمم المتحدة بعائلاتهم

٥ أعضاء السفارة بعائلاتهم

(ب) مواطنون عرب :

٦ أعضاء السفارة السعودية وعائلاتهم .

١ مواطن سورى فى الأمم المتحدة وعائلته .

١ مواطن يمنى يدرس فى الجامعة وعائلته .

وانضم إلى هذه اللبنة أربعون طبيباً مصرياً قدموا فى العام التالى بعائلاتهم ومواطن فلسطينى واحد هو يوسف عبدالكريم (أبو حنطش) تركه الوفد الفلسطينى إلى المؤتمر الإسلامى الأول بكوالالمبور فى مارس ١٩٦٩ - ليمثل حركة فتح الصاعدة فى ماليزيا .

وقد طلب الانضمام إلى الرابطة عدد كبير من الماليزيين من ذوى الأصل العربى .. وقد اعتذرنا عن ضمهم حتى لا يتعارض ذلك مع ولائهم لماليزيا التى تجنسوا بجنسيتها منذ أجيال بعيدة ويرجع بعضها إلى دخول الإسلام إلى ماليزيا منذ حوالى ألف عام ..

ولكننا أكدنا لهم أن جميع الخدمات والأنشطة التى تقدمها الرابطة سوف تكون متاحة لهم بالكامل كما لو كانوا أعضاء رسميين .. وقد تحقق ذلك بالفعل .. فكانت المجلة الشهرية التى تصدرها الرابطة تصل إليهم بانتظام .. كما كانت الدعوات توجه إليهم لجميع الاحتفالات بالوفود العربية والندوات وعروض السينما العربية التى تقيمها الرابطة على مدار العام ..

وكان للرابطة مجلس للإدارة يرأسه الأمين العام المنتخب وقد شرفنى أن انتخب للمنصب . ويجتمع المجلس بصفة دورية وله كل الصلاحيات . ومجلس للجالية يجتمع سنوياً ومهمته أشبه بجمعية عمومية وكان يرأسه المستشار توفيق أباظة رحمه الله .

أما رئاسة الجالية، فكانت فخرية يتناوبها السفيران المصرى خير الدين نصار والسعودى حسين فطانى لمدة ستة أشهر من العام لكل منهما .. وكان ذلك ترتيباً ممتازاً لأنه شجع السعوديين على الاندماج فى العمل المشترك معنا على المستوى غير الرسمى فى وقت كانت العلاقات الرسمية فيه بين السعودية ومصر مشوبة بالحذر الشديد من الجانبين وأحياناً بالتوتر السياسى ..

وقد طلب منا الكثيرون إنشاء فصل لتعليم اللغة العربية للكبار نظراً لارتباط ذلك بفهم المسلمين للقرآن الكريم .. حيث إن كثيرين كانوا يحفظون آيات من القرآن بغير فهم معنى كلماتها .. بل كان بعض المسلمين عندما يختارون أسماء لأولادهم .. يفتحون المصحف الشريف على أى صفحة ويضعون إصبعهم على كلمة فيه ينقلونها وتصبح هى الاسم . وقد أدى ذلك إلى اختيار أسماء لا تصلح مطلقاً .. وعلى سبيل المثال بنت اسمها « زانية بنت محمد » أو رجل اسمه « الذى ابن أحمد » ..

وكانوا فى يوم الجمعة يتباركون بإذاعة الأغانى المصرية قبل أذان الظهر وخطبة الجمعة .. وتجد مثلاً شادية تغنى « حبينا بعضنا » أو « آلو .. آلو إحنا هنا » ولم تتغير هذه العادة عندما

سرت موجة من الوطنية جعلت كل شىء يؤدى باللغة الملاوية الجاوية .. فقد استثنى من ذلك أغنيات يوم الجمعة التى تذاع نقلاً عن شرائط مصرية صار يؤديها باللغة العربية بعض المغنيين الملاويين الذين يعرفون اللغة .. ولكنهم يلتزمون بالفصحى حتى فى الأغانى العامية .. ومن الطريف أن أغنية فريد الأطرش التى يقول فيها باللغة العامية : « ما ألى وألت له .. » .. كانت تغنى بالفصحى : « ما قال لى وقلت له .. » .

لذلك ما أعلنا عن فتح فصل للغة العربية يتسع لثلاثين طالباً ويقوم بالتدريس فيه أحد علماء الأزهر الشريف .. حتى تدافع الناس يطلبون الانضمام إلى ذلك الفصل .. وبلغ عدد المتقدمين أكثر من ١٥٠ شخصاً من الرجال والنساء من أعمار مختلفة مما اضطرنا إلى فتح أربعة فصول مسائية يدرس فى كل فصلين منها واحد من عالمى الأزهر الموجودين بكوالالمبور العاصمة ..

وتناقلت الصحف والإذاعة والتليفزيون أنباء الفصول العربية التى فتحتها رابطة الجالية العربية بماليزيا .. وصارت حديث الناس فى كل مكان ..

وتصادف أن جمعت إحدى المناسبات زوجتى مع حرم تون إسماعيل نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية فى ذلك الوقت، فأبدت إعجابها بفكرة الفصول وأعربت عن أمنيتها أن تلتحق بأحد الفصول .. وتساءلت عما إذا كان هناك فصل صباحى .. فعرضت زوجتى على الفور أن تفتح فى بيتنا فصلاً صباحياً للسيدات من قرينات بعض الشخصيات الماليزية الكبيرة ..

وبالفعل تم فتح الفصل الصباحى فى بيتنا وانضمت إليه بالإضافة إلى حرم تون إسماعيل إحدى الأميرات الماليزيات من العائلة المالكة وزوجات بعض الوزراء وبعض أعضاء مجلس النواب الماليزى وبعض الشخصيات العامة .. وكان لكل ذلك رد فعل طيباً على أعلى مستوى فى ماليزيا ..

وفى السنة الرابعة من عملى فى كوالالمبور ، وقبيل مغادرتى لها عائداً للقاهرة .. تم تطوير رابطة الجالية العربية فى ماليزيا لتصبح كذلك جمعية للصداقة العربية الماليزية أسندت رئاستها الفخرية إلى تون عبد الرزاق رئيس وزراء ماليزيا .. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يرأس فيها رئيس وزراء لماليزيا جمعية للصداقة مع بلد آخر .

وكان ذلك تكريماً لمصر ولدورها .. أما الرئاسة الفعلية فكانت بالتناوب بين السفير المصرى وبين سيد ناصر عضو البرلمان الماليزى .. وفى حفل إنشاء جمعية الصداقة المصرية الماليزية .. جلس على المنصة الرئيسية كل من رئيس وزراء ماليزيا والسفير المصرى ومعهما سيد ناصر رئيس الجمعية .. ونظر تون عبد الرازق رئيس الوزراء من فوق المنصة إلىّ حيث أجلس وحيانى .. وطلب من مساعديه دعوتى للجلوس معهم فوق المنصة .. فكان ذلك تكريماً لشخصى واعترافاً بالدور الذى قمت به فى إنشاء الجمعية .

وكان الخطاب الذى ألقاه تون عبد الرازق رئيس الوزراء فى هذه المناسبة نقطة تحول مهم فى سياسة ماليزيا الخارجية . فقد كانت ماليزيا تقف عادة موقفاً محايداً إزاء أزمة الشرق الأوسط .. ولكن رئيس الوزراء فى خطابه بتلك المناسبة أعلن تأييد بلاده بلا تحفظ للموقف المصرى فى قضية الشرق الأوسط وفى المطالبة بتطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ والقرارات الخاصة بالقدس ..

٤ - سوق خيرى مصرى فى الدوحة لمساعدة الانتفاضة الفلسطينية

فى نوفمبر ١٩٨٧ اشتعلت انتفاضة أطفال الحجارة فى غزة ثم انتشرت فى كل أرجاء فلسطين .. وحازت انتباه وأحياناً تقدير وإعجاب الأحرار فى كل أنحاء العالم ..

وقد تواكب ذلك مع عودة العلاقات المصرية العربية بعد قطيعة دامت عشر سنوات مع بعض الدول وسبع سنوات مع بعضها الآخر منذ قرر مؤتمر قمة بغداد عام ١٩٨١ تعليق عضوية مصر فى الجامعة العربية وهو القرار الذى اعتبرته مصر غير مشروع..

وقد عادت العلاقات مع الدول العربية باستثناء القليل منها مثل سوريا والجزائر ..

ونعود إلى الانتفاضة الفلسطينية التى بهرت العالم وافتخر بها العرب .. وإن لم تكن لدى السفارات العربية فى البداية أية تعليمات محددة بشأنها .. مما يترك الأمر بشأنها للمبادىء العامة للسياسة لكل بلد عربى ..

وحدث أن نسبت إلى الرئيس مبارك فى يناير ١٩٨٨ بعد جولته الخليجية وخلال جولته الأوروبية وللولايات المتحدة تصريحات تضمنت مقترحات بأن تتوقف الانتفاضة لمدة ستة أشهر على أن تتم خلالها مفاوضات مع الفلسطينيين للتوصل إلى ترتيبات مؤقتة ثم سلام شامل ..

وعلى الرغم من أن المفاوضات كانت مطلباً للفلسطينيين عقب بدء المفاوضات مع مصر فى كامب دافيد عام ١٩٧٨ ، إلا أنه بدأت تظهر بعض المقالات على المستوى المحلى فى قطر لبعض الفلسطينيين تنتقد مقترحات الرئيس مبارك وتصفها بأنها تصفية للقضية الفلسطينية وبيع للفلسطينيين ..!! وقد نقلت أقوال مماثلة من الفلسطينيين فى دمشق .. وقد ذكر لى يسن الشريف مدير مكتب منظمة التحرير فى الدوحة أن تلك الكتابات لا تعبر إلا عن رأى أصحابها أو الفصائل التى ينتمى إليها بعضهم .. ولكنها لا تعبر عن القيادة الفلسطينية التى تقدر مواقف الرئيس مبارك كل التقدير ..

وقد فكرت فى أننا لا يجب أن نعطى وزناً لمثل هذه الكتابات التى تظهر فى صحافة هى بطبيعتها ضيقة الانتشار لا يزيد

توزيع الصحيفة منها على ٢٠ ـ ٢٥ ألف نسخة على أكثر تقدير !!
ورأيت أن خير رد على ذلك هو أن ندعم الانتفاضة بطريقة عملية .. ولما كنت لا أريد أن أدخل فى بحث حول مدى حريتنا من الناحية الرسمية فى دعم الانتفاضة .. مع وجود معاهدة للسلام .. ورأيت أن قيام مجموعات شعبية بدعم الضحايا من الفلسطينيين من أبناء الانتفاضة وكذلك أهلهم على أسس إنسانية لا يندرج بحال تحت ذلك البحث .. وأنه أمر طبيعى ومشروع بل واجب على كل عربى .. وسيكون ذلك أبلغ من أى رد على بعض الكتابات التافهة التى لا تستحق الرد وسيكون بداية تعبير عن الموقف المصرى من الانتفاضة الفلسطينية .

ولذلك اتفقت مع زوجتى على عمل سوق خيرى مصرى تقيمه سيدات الجالية المصرية يكون هدفه وتوجه حصيلته لمساعدة أسر الضحايا من أبناء الانتفاضة الفلسطينية .. وتحمست زوجتى للفكرة وكان شرطها الوحيد أن تكون السوق الخيرية المصرية .. مصرية ١٠٠ ٪ بجميع معروضاتها ومن صنع سيدات الجالية أو من مشتريات من البضائع المصرية من خان الخليلى وغيرها وليس عن طريق جمع تبرعات من المحلات القطرية على نحو ما كان يتم فى مناسبات خيرية أخرى سابقة .

وعقدت زوجتى على الفور اجتماعات مع سيدات الجالية المصرية فى قطر .. واللاتى لم يكن أقل حماساً منها لعمل السوق .. وتم توزيع نشرة صحفية قصيرة إلى الصحف القطرية بهذا المعنى .

وتأخر نشر الخبر ٤٨ ساعة .. فلم ينشر النبأ فى الصحف الصادرة فى اليوم التالى وإنما نشر فى اليوم الذى يليه ١٩٨٨/٢/٤ وعلى الصفحة الأولى ، وإلى جواره نشر نبأ يقول إن مجلس الوزراء القطرى برئاسة سمو الأمير الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى قرر فتح باب التبرعات لدعم الانتفاضة وأسر

الشهداء والضحايا .. وفى التاريخ نفسه نشر خبر فى صحيفة «الأهرام» بعنوان بدء حملة تبرعات لصالح الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة جاء به أن وزارة الخارجية المصرية قررت بالاشتراك مع الهلال الأحمر المصرى بدء حملة تبرعات عينية ومالية لصالح اللاجئين الفلسطينيين فى الضفة وقطاع غزة . وصرح السفير طه الفرنوانى مدير إدارة فلسطين بالخارجية بأنه يجرى حالياً بحث كيفية إرسال هذه المعونات وقال إنه تلقى ـ بناء على طلب مصر ـ من ممثل وكالة « الأونروا » لإغاثة اللاجئين قائمة بالأدوية التى تحتاج إليها المخيمات الفلسطينية فى القطاع بالإضافة إلى طلب إرسال ٨ أطباء مصريين من مختلف التخصصات لمساعدة أهالى المخيمات .

ولعل خير ما يمكن أن نصف به الاستعدادات الكبيرة التى قامت بها سيدات الجالية المصرية فى قطر هو ما نشرته صحيفة «الراية» القطرية الصادرة يوم ١٧ فبراير ١٩٨٨ قبل افتتاح المهرجان بيوم واحد ..

« يفتتح سعادة وزير العمل والشئون الاجتماعية السوق الخيرى الذى تقيمه الجالية المصرية لرعاية أسر الشهداء والمصابين فى انتفاضة الشعب الفلسطينى . وذلك يوم غد الخميس .

وسوف يحتوى المعرض على أشغال يدوية من صنع سيدات الجالية ومنتجات مصرية من خان الخليلى وأفلام سياحية وترفيهية ومأكولات مصرية متنوعة من صنع سيدات الجالية أيضاً.

ويستمر هذا السوق حتى مساء يوم الجمعة ١٩ فبراير وذلك بنادى الشاطىء المقام بجوار فندق الواحة .

هذا وقد صرحت حرم سعادة السفير المصرى عصام الدين حواس لـ « الراية » بأنها قامت بالاتصال بالقاهرة حيث حصلت

على موافقة الفنان نور الشريف والفنانة بوسى للمشاركة فى فعاليات السوق أثناء تواجدهما بالدوحة وقد رحبا بالدعوة باعتبار أنها قضية تهمنا جميعاً وباعتبار أن المساهمة فيها هى شرف لكل مواطن مصرى .

ونسأل حرم سعادة السفير المصرى كيف تم الإعداد والتفكير فى إقامة هذا السوق ؟!

وبحماس قالت : «إن ما تقوم به ليس إلا تعبيراً عن المشاعر الطبيعية التى يشعر بها كل مصرى وعربى وكل إنسان على وجه الأرض تجاه إخوة له فى الأرض المحتلة يتعرضون للوحشية والظلم على يد سلطات الاحتلال الإسرائيلى فى الضفة وغزة والقدس العربية وهذه الأعمال الوحشية ترتكب ببشاعة ضد الأطفال والنساء والشيوخ والشباب العزل وكل ما حدث من أولادنا وأهلنا فى الأرض المحتلة أنهم يعبرون عن حقهم المشروع والمعترف به دولياً فى رفض الاحتلال .

إننا لا نستطيع أن نشاهد كل ليلة هذه المهازل التى ترتكب والتى تهدد كل القيم الإنسانية ونقف كالمتفرجين » .

وأقيم السوق .. وكان مظاهرة حاشدة فى مدينة الدوحة .. وقام بافتتاحه الوزير على الأنصارى وزير الشئون الاجتماعية والعمل الذى كنا نطلق عليه لقب العميد الفخرى للسلك الدبلوماسى نظراً لأنه كان أباً لثلاثة أبناء منهم سفير لقطر فى اليابان وآخر فى الإمارات والثالث سكرتير أول فى موسكو .. كما أنه كان صديقاً دائماً لأعضاء السلك الدبلوماسى فى الدوحة يدعوهم إلى بيته .. ويجاملهم فى المناسبات المختلفة الرسمية والاجتماعية ..

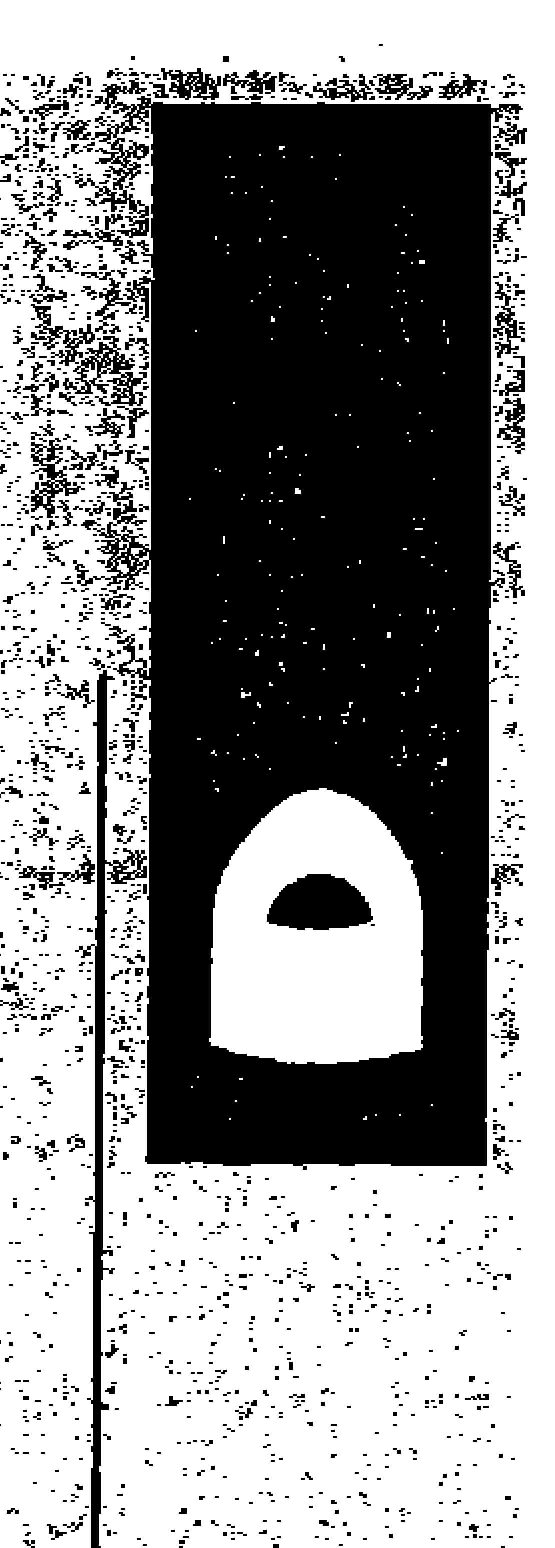
كما حضر الحفل رئيس مكتب منظمة التحرير الفلسطينية فى الدوحة الذى صار بعد ذلك سفيراً لفلسطين .. وعدد من السفراء العرب والشخصيات وعدد غفير من أبناء الجالية المصرية فى

قطر .. أصحاب الحفل فى الواقع ..

بيد أن النجم الحقيقى لحفل الافتتاح والسوق كان نور الشريف وزوجته الفنانة بوسى ..

لقد انتشر نبأ وجودهما فى الدوحة وافتتاحهما للسوق المصرى لدعم الانتفاضة ووصلت إلى مقر النادى الذى أقيم فيه السوق جحافل من البشر من جنسيات مختلفة مصريون وقطريون وفلسطينيون وجنسيات عربية أخرى .. ووقف الفنان نور الشريف على كرسى وبدأ فى مزاد بيع اللوحات التى قدمتها للمهرجان وكانت ثلاث لوحات .. الأولى لأطفال الحجارة .. يواجهون السلاح الإسرائيلى القاتل ويرفعون علم فلسطين ويرحبون بصدورهم بالاستشهاد .. أما الصورتان الأخريان فإحداهما لفلاح مصرى اسمه « حمدان » والأخرى لفلاحة مصرية اسمها « بهية » .. رمزان للشعب المصرى .. وقد كتب تحتها بخط كبير :

(حمدان وبهية .. يؤيدان الانتفاضة الفلسطينية) .



مواجهة مع الخمير الحمر في كمبوديا..

من مذكرات سفير سابق

عندما دق التليفون فى بيتى مساء إحدى ليالى رمضان الكريم .. ليبلغنى زميل فى (شئون السلك) أن الوزير عمرو موسى قد رشحنى للمشاركة فى الإشراف على الانتخابات فى كمبوديا كأحد مراقبى الأمم المتحدة ويطلب رأيى فى ذلك، لم أتردد لحظة فى قبول الترشيح مقدراً للوزير أنه كان عند وعده الذى قطعه فى « يوم الدبلوماسى » هذا العام .. بالاستفادة من الخبرات التى انقضى ارتباطها الرسمى بالوزارة .. وعلى الرغم من أن الخبر قد لقى ترحيباً وتهليلاً من أفراد أسرتى الذين كانوا مجتمعين يستقبلون حفيداً جديداً لنا .. إلا أن واحداً من أقربائى من الأطباء قال لى فى ابتئاس :

– ليه يا عمى المهمة دى فى كمبوديا .. دى حاجة خطرة جداً .. وأنا أتابع فى الـ C.N.N .. الخمير الحمر هناك نازلين ذبح فى الناس .. وهددوا بإفشال الانتخابات .. والأمم المتحدة هدف لهم الآن .. وهناك أناس قتلوا بالفعل .. وقطعت الوجوم الذى ساد لحظة ، وقلت لاحقاً – لا تحمل هماً .. فسأعمل عند وصولى على مصالحة الخمير الحمر مع أنصار سيهانوك وأنهى المشكلة وأعود إليكم سالماً ..! وأعترف أن كلمات قريبى الطبيب قد شغلت تفكيرى .. فلم أكن متابعاً عن قرب لآخر التطورات فى كمبوديا .. وكان آخر ما سمعته عنها وسعدت به أن الفصائل الأربعة

الرئيسية فيها قد تصالحوا تحت مظلة الأمم المتحدة فى مؤتمر فى باريس اتفقوا فيه على إنهاء حالة القتال الدائر بينهم منذ أكثر من عشر سنوات وبداية عهد جديد من الوحدة الوطنية والتنمية تعوض فيه البلاد الكثير الذى فقدته خلال تلك الفترة التعيسة التى قضت على معظم مواردها ووضعتها فى مصاف أفقر دول العالم قاطبة .. وتصورت أن مهمتنا ستكون مهمة سلام تثوى لهذا الاتفاق الذى يلتزم به كل الأطراف .. لمجرر ضمان حيدة الانتخابات ونزهتها .. وأنه إذا كانت هناك بعض التحفظات من طرف أو آخر فإنها لا ترقى إلى درجة تحدى إجراء الانتخابات فى الموعد المتفق عليه .. ولذلك وجدتنى منذ الصباح التالى أبحث فى صفحة الأنباء العالمية عن كمبوديا وما يجرى فيها .. وفى كل يوم تتأكد لى أكثر كلمات قريبى الطبيب ...

– الدكتور بطرس غالى فى كمبوديا .. ويعلن بشكل حاسم تصميم الأمم المتحدة على إجراء الانتخابات فى موعدها وأنها لن تتراجع عن ذلك مهما كانت الظروف .

مصرع أحد المحافظين التابعين للأمم المتحدة من جنسية يابانية فى إقليم كمبوديا وتبادل الاتهامات بين حزب الحكومة وبين الخمير الحمر حول المسئولية عن الحادث .

وقوع إحدى الدوريات العسكرية فى كمين نصبه الخمير الحمر وتبادل إطلاق النار ووقوع ضحايا من الجانبين .

عدد من موظفى الأمم المتحدة فى كمبوديا يطلبون إعفاءهم من مهامهم هناك ويغادرون كمبوديا .

فى ظل هذه الظروف والمخاوف المحيطة بالعملية ـ بل على الرغم منها ـ وجدتنى أستقل الطائرة متجهاً إلى تايلاند وبالتحديد إلى منطقة تدعى « باتايا » كانت مركز التجمع للأمم المتحدة .... حيث قضينا يومين هناك للاستماع إلى تقارير عن الأوضاع فى كمبوديا .. كل ما فعلته أن أكدت من شكوكنا حول المخاطر التى

تنتظرنا هناك .. فقد أخطرنا ابتداء ألا نتوقع إقامة فى فندق النجوم الخمسة .. أو حتى فى أية فنادق على الإطلاق .

فقد كانت المهمة تقتضى وجودنا فى مناطق نائية للمراقبة قد تكون أحياناً وسط الأدغال وهى بالقطع أماكن لا تتوافر فيها الكهرباء أو المياه فى جو استوائى شديد الحرارة والرطوبة .. وعلمنا أن الأمم المتحدة وفرت ما أمكن توفيره من مولدات الكهرباء والبطاريات والشموع وكلها وسائل يمكن استخدامها لساعات محدودة خلال الليل .. كما وفرت بعض حاويات لمياه الشرب .. وكان ذلك أقصى ما يمكن توقعه من رفاه ..

كما تم التأكد من أن كل مراقب قد حصل على التطعيمات الواقية من الأمراض المختلفة واستكمل ما ينقصه منها فى تايلاند .. وهناك تشمل التحصين ضد الكوليرا والتيفود والتهاب الكبد الوبائى بنوعيه أ ، ب والتيتانوس وأمراض الملاريا مع تحفظ إضافى .. يجب عمل الاحتياط فى الابتعاد عن مصادر تلك الأمراض بقدر الإمكان .. فالتطعيم هو حماية جزئية ولكنها غير كاملة .. أما التحذير من مرض « الإيدز » فقد احتل نشرة كاملة .. مليئة بالنصائح والإرشادات ثم تم الانتقال بعد ذلك إلى التنبيه إلى المخاطر الأمنية .. فلا ينبغى السير فى الطرقات فرادى بغير حراسة مسلحة .. ويجب على كل حال تحاشى الخروج بعد الغروب بقدر الإمكان ما لم تكن هناك ضرورة توجب ذلك .. كما أبلغنا أن هناك أكثر من ١٢ مليون لغم زرعها الخمير الحمر .. بمعدل لغم لكل كمبودى وعرضت علينا أنواع مختلفة منها .. مع الوسائل المعقدة الكفيلة بالتعامل معها .. وإلا فإن الأفضل عدم التعامل معها وتجنبها والإبلاغ عن وجودها .. وإلى جانب ذلك كانت هناك محاولات لشرح طبائع الشعب الكمبودى .. فهو شعب عريق فقير .. حساس .. فخور بنفسه معتز بكرامته .. وقائمة طويلة بما يمكن وما لا يمكن أن يقال .. وضرورة إبداء احترام

خاص لكبار السن .. وعدم الضحك بصوت عال وعدم السلام باليد ... وعدم أخذ المبادرة فى كثير من الأمور ... وبالإضافة إلى ذلك تم شرح أسلوب الانتخابات الذى تقرر وهو أسلوب بالغ التعقيد متعدد الخطوات ولكن الهدف منه هو ضمان النزاهة الكاملة للانتخابات وعدم حدوث أى تلاعب خلالها أو أثناء عملية فرز الأصوات .. فتلك هى المسئولية الرئيسية التى قبلت الأمم المتحدة الالتزام بها .. وهى تتويج لعمل لأجهزة المنظمة الدولية استغرق ما يقرب من العام الكامل فى إدارة البلاد قبل الانتخابات.

هذه الذخيرة المفرغة من المعلومات ازدحمت فى رؤوسنا ونحن نستقل الطائرة الحربية من طراز (سى ١٣٠) الضخمة التى حملتنا من ميناء باتاى الجوى متجهة إلى كمبوديا .. وراحت الأفكار تدور فى رؤوسنا تستعيد ما سمعناه خلال الأيام القليلة الماضية عندما قطع علينا تفكيرنا صوت شاويش استرالى من طاقم الطائرة يخاطب المجموعة قائلاً إنه يعلم أننا سنعود من مهمتنا يوم ٣١ مايو .. وهو سعيد بذلك لأن ذلك اليوم يوافق يوم عيد ميلاده ولذلك، فإنه يدعونا جميعاً إلى مشاركته حفل تلك المناسبة الذى سيقيمه فى أحد الفنادق الكبرى فى تايلاند .. وينظر قائلاً وهو يفرك شاربيه ـ لا تأتوا لى معكم بهدايا ! إن أكبر هدية يمكنكم أن تقدموها لى فى ذلك اليوم هى عودتكم جميعاً بالسلامة ..!

وهبطت بنا الطائرة أرض مطار مقاطعة فى وسط كمبوديا تدعى « كامبونج شاننج » ونزلنا من الطائرة .. وكانت المفاجأة السارة لى أن شاهدت ضابطى شرطة مصريين فى انتظارنا يرتدون زى الأمن المركزى ..! أحدهما برتبة الرائد واسمه محمد والثانى برتبة النقيب واسمه أشرف .

تبادلنا العناق وفهمت منهما أنهما يعيشان فى تلك البلاد منذ عشرة شهور .. وأن هناك مائة ضابط شرطة مصرى موزعون

على أنحاء متفرقة من البلاد .. وعلمت أن الموقع الذى سأتولى الإشراف عليه يقع فى منطقة تبعد حوالى ٥ كيلومترات من عاصمة الإقليم نحو جنوب واسمها (كامبونج ترالاخ) ووجدت سيارة لاندروفر بانتظارى لتقلنى إلى هناك وسط حراسة مسلحة من اثنين من الجنود يحملان الرشاشات .. وأسعدنى مرة أخرى أن أعرف أنهما من تونس وأنهما ضمن فريق تونسى مكون من حوالى ٩٠٠ جندى وضابط يعيشون بدورهم فى هذه البلاد منذ عشرة شهور .. وكان عناقاً طويلاً مرة أخرى .. لقد تجاوزت العربة الحدود القائمة بين الدول .. وفرحت أن أرى مواطنين عرب فى أدغال آسيا حيث لم يكن يمكن أن يخطر ببالى بحال من الأحوال إلا ما قرأناه فى عابر الزمان وسالف العصر والأوان ..! وعندما وصلنا إلى ترالاخ كان الغروب يسود السماء فيكسوها بلون أحمر جميل . وجلسنا فى الاستراحة إلى أن تم تدبير مكان لإقامتنا كنا نحسد عليه من الجميع .. فهو بانجلو خشبى مرتفع عن الأرض بأعمدة خشبية مقسمة إلى غرف وكان يقيم بالطابق الأرضى منه اثنان من الضباط من شيلى يعملان لحساب الشرطة الدولية التابعة للأمم المتحدة وقد أقاموا فى البيت وأحضروا معهم « ستريو » يلعبون عليه فى أوقات الفراغ أشرطة موسيقى أمريكا اللاتينية الشهيرة بما يخلق لهم جواً يقربهم إلى بلادهم التى تركوها منذ ما يقرب إلى العام .

أما فى الطابق العلوى الذى كان كل إقامتنا ، فكان يشاركنا فى غرفة منه شاب من شمال باكستان أبيض اللون يدعى أمير .. تزوج حديثاً من فتاة كمبودية بيضاء البشرة فارعة الطول .. التقى بها على نحو ما روى لنا قبل ستة شهور خلال عمله مع الأمم المتحدة فى بنوم بن وهى فتاة رائعة الجمال ولكن تكسو وجهها مسحة من الحزن ، وقد شرح لنا « أمير » أن عروسه هذه هى ابنة جنرال من الجيش الكمبودى التابع لسيهانوك .. وقد أعدمه

الخمير الحمر خلال فترة توليهم الحكم فى أوائل السبعينات وكانت وقتها طفلة صغيرة .. ولكنها لا تنسى أباها حتى اليوم .. وقد أتى لنا الرئيس الإدارى لمنطقة ترالاخ وهو رجل فى الأربعينات يدعى « ساها » من نيبال بأربعة أرغفة من الخبز الفينو « كايزر » شرح لنا أنه اقتسمها معنا من خبز كان قد اشتراه من بنوم بن صباح ذلك اليوم ...وكان ذلك ـ مع بعض أصابع الموز ـ أحضرها لنا مالك البيت من الحديقة هو عشاؤنا لتلك الليلة .. وقد سعدنا به وامتلأت به بطوننا الخالية حيث لم نتناول أى وجبة بعد الإفطار فى الصباح قبل أن نترك تايلاند ..!

وكانت الساعة تقارب العاشرة مساء ولم يكن أمامنا سوى الإسراع بالتهيىء للنوم قبل نفاد البترول وتوقف مولد الكهرباء عن العمل .. وهو الموعد الذى تنطفىء فيه الأضواء مساء كل يوم حسبما فهمنا وبدأنا نعاين الأماكن التى سوف ننام فيها عندما دق الباب وكان القادمان ضابطين مصريين من ضباط الشرطة العاملين فى المنطقة ضمن القوات الدولية ... وقد أحضرا معهما فانوساً يعمل بالجاز .. وطلبا منا استخدامه عند انتهاء فترة عمل المولد .. وقدما أنفسهما إلينا مصطفى وأحمد وكان لهما زميل ثالث لم يعد من العمل بعد.. وعلمنا منهما أنهما ضمن مائة ضابط شرطة دولى من مصر حضروا إلى كامبوديا منذ يونيو ١٩٩٢.

وأبدينا دهشتنا لأن الإعلام المصرى لم يبرز هذه المشاركة المهمة لأبنائنا فى تلك المهمة الدولية .

وأصر بالشهامة المصرية على أن ننتقل للإقامة معهم فى بيتهم الواقع خلف بيتنا « ونساع بعضنا » وستكون فرصة لهم لنؤنس من وحشتهم ولكننا اعتذرنا شاكرين العرض الكريم ، وأصروا أن نتناول على الأقل الإفطار فى صباح اليوم التالى معهم إلى أن نتمكن من تدبير أمور معيشتنا وقبلنا شاكرين .. وغاب أحدهما دقائق وعاد يحمل علبة كبيرة من البيروسول المقاوم للباعوض

والذباب وكانت أقيم هدية نحصل عليها حيث لم تكن الأسرَّة التى أعدت لنا مغطاة بعد « بالناموسيات » وقد وعد مالك البيت بتزويدنا بها فى اليوم التالى .. وبعد رش حجرات البيت نمنا نوماً عميقاً من آثار جهد يوم كامل من السفر .. ومع أول ضوء وعلى نغمات صداح ديك « كمبودى » فتحت عيناى وبدأت من خلال النافذة أرى المكان من حولنا فى ضوء الصباح .. كان منظراً رائعاً يخلب العقل .. أنواع من الأشجار الباسقة بدرجات مختلفة من الخضرة .. تلف المكان .. بعضها أشجار المانجو .. وبعضها جوز الهند .. والموز .. والباباى .. إلى جانب أنواع من النباتات الاستوائية الغريبة علينا .. كانت جميعها متناسقة ومتداخلة فى لوحة رائعة رسمها الخالق عز وجل ..

وطلب منا جارنا الباكستانى « العريس » توخى الحذر عند نزولنا إلى الأرض .. فقد صادف فى اليوم السابق ثلاثة ثعابين قتل واحداً منها وفر الآخران .. كما حذرنا من الجلوس تحت الشجر عامة حيث يوجد بها نوع من الحشرة الصغيرة قد تهبط علينا وتلدغنا وكثير منها سام .. كما حذرنا بصفة خاصة من الجلوس أو الوقوف تحت شجرة جوز الهند .. حيث قد يتصادف وقوع إحدى ثمرات جوز الهند الثقيلة الوزن .. وهى إذا أصابت رأس أحدنا فقد تؤذيه بشدة .. ابتداء من ارتجاج المخ وحتى القتل لا سمح الله .. وارتدينا ملابسنا وهرعنا حسب وعدنا إلى بيت الضابطين المصريين حيث وجدنا مائدة إفطار مصرية مائة بالمائة تحتوى على الفول المدمس بالزيت والليمون .. والجبن الأبيض الدمياطى والعسل الأبيض المصرى والزبدة والحلاوة الطحينية وقالوا لنا قد أتيحت لأحدهم فرصة النزول إلى مصر فى إجازة قصيرة فكلفوه بحمل أكبر كمية من الأكلات المصرية .. وشرائط الفيديو والأفلام المصرية حيث كانت هذه تسليتهم الوحيدة فى أوقات الفراغ لعدم وصول الإرسال التليفزيونى الكمبودى إلى تلك

المنطقة رغم بعدها من العاصمة ٥٠ كيلو متراً فقط .

توجهنا بعد ذلك إلى عاصمة المقاطعة مدينة « كامبونج شانج » لعقد اجتماع لكل مراقبى الأمم المتحدة بالإقليم .. لتحديد مسئوليات كل منهم والمنطقة الخاضعة لرقابته .. وكان لكل منهم لجنة انتخابية أو أكثر تخضع لإشرافه المباشر لها رئيس كمبودى الجنسية ونواب للرئيس .

ومراقب الأمم المتحدة هو المسئول عن الإشراف على سلامة وسير الانتخابات وفقاً للإجراءات والخطوات التى حددت له والموحدة فى جميع اللجان وضمان نزاهتها وعدم حدوث أى خلل متعمد أو غير متعمد فيها ..

وهو المرجع الأخير والحكم النهائى فى أى شىء يثور عليه الخلاف أو أى ملاحظة يثرها أحد ممثلى الأحزاب العشرين التى بعثت بممثليها إلى اللجان التى يتواجد لها فيها مرشحون لمراقبة العملية الانتخابية من جانبها .

وبعد انتهاء الاجتماع دعانا رئيس الإقليم الممثل لإدارة الأمم المتحدة إلى الغداء فى المطعم الوحيد الموجود بالمدينة على أن يدفع كل حسابه .. أى على الطريقة الإنجليزية كما نقول نحن فى مصر .. أو على الطريقة الهولندية كما يقول الإنجليز ..!

وكان المطعم عبارة عن قطعة أرض فضاء تظللها تكعيبة خشبية تنمو عليها النباتات فضلاً عن شجرة ضخمة معمرة تغطى المكان كله بظلالها وبجانب التكعيبة الخشبية غرفة مبنية هى المطبخ وبجوارها غرفة مخزن وصفت موائد تحت التكعيبة تتسع لحوالى ٣٠ شخصاً ..

وأعدت لنا صاحبة المطعم قائمة طعام خاصة اشتملت على الجمبرى .. وهو معروف بكثرة هناك وقطع اللحم البقرى الصغيرة والبطاطس المحمرة والأرز الصينى المخلوط بالبازلاء .. والخبز الفينو الفرنسى وهو أجمل ما فى كمبوديا من طعام ..

وهو متوافر فى كل مكان .. أما الحلو فكان شرائح من فاكهة الأناناس والبابايا ... والحق أنها كانت من أجمل الأكلات التى استمتعنا بها وزاد من استمتاعنا بها أننا كنا نعرف أنه لن يتاح لنا تكرارها فى كل يوم ..! وكان نصيب كل منا الذى تحمله فى الغذاء دولارين ونصف دولار أمريكى وقيل لنا إنه يمكننا شراء احتياجاتنا المعيشية من سوق المدينة حيث قد لا نستطيع الحضور مرة أخرى قبل انتهاء الانتخابات التى كان مقرراً لها أن تبدأ بعد أربعة وأن تستمر ستة أيام ..

وعلمنا أن العملة الكمبودية هى الرييل الكمبودى وأن الدولار الأمريكى يساوى ٤٠٠٠ رييل وأنه كان من شهور قليلة يساوى ٢٤٠٠ رييل قبل أن يقفز إلى ما يقارب الضعف أثر إشاعة بأنه سيجرى تغيير العملة واستخدام ريال جديد تكون نسبته إلى الدولار ٣٥ رييل .. ولذلك فضل الناس شراء الدولار للاحتفاظ به على سبيل الاطمئنان للمستقبل حيث لم يكن معلوماً لديهم مصير العملة المحلية .. وكان ذلك الإقبال على الشراء وراء ارتفاع سعره .

وكان سوق المدينة أشبه بأسواق الريف عندنا .. ميدان فسيح على جوانبه الأربعة بعض المحال المبنية المتواضعة ويتوسطه أيضاً بعض الأكشاك حيث يباع فيه كل ما يحتاج إليه أهل المدينة من لوازم ابتداء من مواد البقالة والتنظيف والأوانى البلاستيكية والمعلبات المحفوظة والسجائر والأدوات المنزلية والأقمشة والفاكهة المحلية والخضراوات والدواجن واللحوم .

وفى بعض الأكشاك تباع الحلى الذهبية والفضية المتواضعة بأسعار زهيدة نسبياً .. وتقوم بائعة الذهب والفضة بمهمة الصرف لتغيير العملة المحلية بالدولار والعكس .

ومنذ تولى الأمم المتحدة لزمام الإدارة فى البلاد فى أوائل عام ١٩٩٢ وقد أصبح الدولار عملة معترفاً بها فى التعامل .. بل

وأحياناً مفضلة عند التعامل مع الأجانب لسهولة فهمها من ناحية وسهولة حمله من ناحية أخرى .

فقد سبق أن ذكرنا أن الدولار الواحد يساوى ٤٠٠٠ رييل .

ومعنى ذلك أنه يساوى ثمانى ورقات فئة ٥٠٠ ريال أو ٤٠ورقة فئة مائة ريال .

ومعنى ذلك أن مَنْ يسدد ١٠ دولارات يجب أن يحمل معه ٨٠ورقة فئة ٥٠٠ ريال أو ٤٠٠ ورقة فئة مائة ريال بما يساوى ٤٠ ألف ريال وهى مهمة ليست باليسيرة .

وإذا كانت السلع المحلية تبدو منخفضة الثمن .. فعلى سبيل المثال، فإن كيلو المانجو يساوى أقل من دولار وحبة جوز الهند تساوى ٥٠٠ ريال أى ثمن دولار، فإن السلع المستوردة كانت تساوى تقريباً أسعارها العالمية كان صندوق علب الكوكاكولا يساوى ٨ دولارات أو ٣٢٠٠٠ ألف رييل .

وكان من ضمن ما اشتريته من السوق مروحة كهربائية صغيرة من المفروض أن تركب فى السيارات وتعمل على بطارية قوة ١٢ فولت .

وقد اشتريت معها بطارية من بطاريات الموتوسيكل .

وكان الهدف من شرائها هو وضعها فوق المخدع لتشغيلها وقت النوم فى الأوقات التى يتوقف فيها عمل المولد الكهربائى .

وكان علىّ أن أرسلها للشحن كل ثلاثة أيام مقابل ٥٠٠ رييل أو واحد على ثمانية من الدولار .

وقد ساعدنى هذا الاختراع على التمكن من اختلاس بعض ساعات للنوم الهادىء كل مساء والتخفيف من قسوة الجو المليء بالرطوبة ..

وفى اليومين التاليين (الأربعاء والخميس) كان علينا الإعداد على الطبيعة للانتخابات التى كانت ستبدأ صباح يوم الأحد ٢٣ مايو ١٩٩٣ وقد تضمن برنامج يوم الأربعاء الالتقاء

بالأجهزة المختلفة التابعة للأمم المتحدة التى ستعمل بالتعاون معنا وتشمل طاقم رؤساء اللجـان ونوابهم وأعضاء اللجان وجميعهم من الكمبوديين المتعاقدين مع الأمم المتحدة وحصلوا على تدريبات خاصـة على عمليـة الانتخـابات لمدة ثلاثة شهور وطاقـم الشرطة المدنية التابعة للأمم المتحدة وتتولى توفير عمليات النقل بالسيارات أو المراكب البخارية سواء للأفراد أو المهمات وكذلك تنظيم الدخول والخروج وحـفظ النظام باللجان الانتـخابية ثم طاقم الـعسكريين التابعـين للأمم المتحدة ويتـولى مسئوليـة تأمين وحمـاية الأفراد والأماكن التى تجرى فيها الانتخابات كـما يتولى مسئولية استلام صناديق الانتـخابات بعـد وضع الأخـتام عليـها بواسطة رؤسـاء اللجان الانتخـابية وبإشراف مراقبى الأمم المتحـدة والتحفظ على الصناديق بخـزائن مؤمنة وإعـادتهـا فى اليوم التـالى إلى اللجنة الانتخابية كـما يتولى مسئولية تأمينهـا ونقلها إلى المقار المركزية لفرز الأصوات بعد إتمام عمليات الانتخابات .

وقد الـتقـيت بالأطقم تحت إشرافى وتحـدثت إليهم مـوضحـاً أهمية العملية التى تقوم بها الأمم المتـحدة فى كمبوديا وأنها عملية فـريدة من نوعهـا من حيث المسـئوليات الإدارية الضـخمـة التى تولتـها المنظمـة الدولية فى البـلاد على مدى مـا يقرب من الـعام الكامل لإتاحة الفرصة أمام أبناء الشعب الكمبودى المسالم لتحقيق رغبته فى إنهاء الاقتتـال الدائر على مدى أكثر من عقد من الزمان والبدء فى العمل الجاد للحاق بركب مسيرة الأمم المتحضرة .

وأوضحت أن الشـعب الكمبـودى له تاريخ عريق مـعروف فى المنطقة ولـكن الحروب الدائرة بين الفـصائل المختلفـة فيـه تحمل الشعب وحـده ثمنها الفـادح الذى أودى برخاء بلاده وجـعلها فى مصاف أكثر دول العالم فقراً ..

وأن الانتخابات المقرر لها أن تجـرى بعد أيام قليلة هى قمة هذا الجهد الدولى ونأمل جـميعاً أن تكون تتـويجاً له يؤدى إلى أفضل النتائج .

وأشرت إلى أننى قد زرت كمبوديا عام ١٩٦٦ ووجدت فيها شعباً طيباً مسالماً آمناً يعمل فى هدوء ويكافح للنهوض ببلاده ، وكان الأمير سيهانوك على رأس السلطة يظلل الجميع بالمحبة والوئام .

ولكن الأطماع لم تترك البلاد فى سلام وتنازعتها أكثر من قوة خارجية .

وأن الآمال معقودة على الجهد الذى تقوم به الأمم المتحدة لتصحيح الأوضاع الظالمة التى تعرض لها شعب كمبوديا فى الحقبة الماضية وفتح آفاق المستقبل المشرق أمامه ليقرر مصيره وصورة الحكم الذى يريده لبلاده فى حرية كاملة من خلال انتخابات نزيهة تحيطها كل الضمانات الكافية .

وفى اليوم التالى الخميس انتقلت إلى موقع الدائرة الانتخابية التى كلفت بالإشراف عليها.. حيث عاينت المكان الذى سيخصص لعمل اللجان الانتخابية وهو معبد قديم ضخم مبنى من الخشب وسط غابة متسعة تعلو فيها الأشجار وتحيط المكان بظلالها الوارفة وتتألق أوراقها الخضراء الكبيرة تحت أشعة الشمس فتبدو فى ضوء الصباح وكأنها مصابيح منيرة بألوان تتدرج من الأصفر فالأخضر فالبرتقالى وحتى اللون الأحمر.. نور على نور.. تتخلله أشعة الشمس الفضية.. لوحة أخرى رائعة للطبيعة من صنع الخالق العظيم عز وجلت قدرته.

ورحب بنا الكهنة والكاهنات الذين كانوا يؤذون بعض الصلوات والمناسك أمام تماثيل لمعبودهم بوذا.. وأبدوا استعدادهم لتقديم أى مساعدات لتهيئة المكان للجان الانتخابية لأن ذلك فى رأيهم هو نوع من العبادة ويتفق مع تعاليم بوذا فى السلام وفى إنقاذ الشعب الكمبودى من الأزمة الطاحنة التى كان يدور فيها .. !

وبالفعل شمر الجميع عن سواعدهم.. وفى خلال دقائق معدودة كان المكان قد أخلى من كل شىء عدا تماثيل بوذا التى

كـانت مقـامة فى أول القـاع الكبرى فـقد أحـيطت بالحواجـز من الشـرائط الجريرية أمـا باقى المكان فـقد بدأ رجـال الأمم المتحدة يرتبون فيه المناضـد والكراسى وصناديق الانتخاب والممرات التى تحدد مـسار الناخبين حـيث قسمت القـاعة الكبرى لتـتسع لست لجان يدير كل منها نائب للرئيس ومعه ستة مساعدين.

وكانت خطـوات العملية الانـتخابيـة تبدو مـعقدة ولـكن ما بدا تعـقيـداً لنا كـان فى الواقع يهدف إلى ضـمـان الحيـدة والنزاهة الكاملين وإلـى عدم وقـوع أى إخـلال بسـلامـة التـصـويت على مستوى الدولة كلها.

فقد كان على الناخب قبل كل شىء أن يقـدم بطاقته الانتخابية الصادرة من الدائرة التى يصـوت فيهـا حيث تثبت بيـاناتها ويتم التحقق من سلامتها.. ثم يتم الكشف عليها فى ضوء قائمة موزعة على اللجان تتضمن أسماء بعض الفيتنامـيين المقيمين فى كمبوديا الذين لا يحق لهم الأدلاء بأصواتهم فى الانتخابات.

ثم بعد ذلك يتم فحص الإصبع الإبهـام للناخب بواسطة توجيه الأشعـة فوق البنفسـجية إليـها، فإذا كـان الناخب سبق له الأدلاء بصوته فى دائرة أخرى فسوف تظهـر على الفور آثار حبر سرى لا لون له يضع كل ما يدلى بصوته إصبعه فيه قبل الإدلاء بصوته ولا يمكن إزالته قبل مـضـى سبعة أيام على الأقل، فـإذا ما تعرض إصبعه لتلك الأشـعة فإن الحبر سيظهر بوضـوح بلون فسفورى تحت الأشعة وبذلك يستبعد من الإدلاء بصوته.

أما الخـطوة المنطقيـة التاليـة بعد إتمام كل تلك الخطوات فـهى وضـع إصبع الناخب داخل كوب أو إناء يحتوى على الحبر السرى الذى يأخذ شكل الماء العادى ويتـرك لحظات فى الهواء حتى يجف تماماً.

ثم بعـد ذلك يسلم الناخب البطاقـة الانتخـابية التى تنتـزع من دفتـر مسلسل الأرقـام حيث يحـملها إلى المكان المخصـص ليدلى

بصـوته خلف ساتر ثـم يحملهـا إلى صندوق الانتـخاب بعـد أن يطويها ليضعها بنفسه فى الصندوق.

كل هذه الخطوات تتبع فى الحـالات العادية التى يكون الناخب مقـيداً فى نفس الدائرة ولا تكون هناك أى شـائبة حول حـقه في التصويت.

أما إذا كان الناخب يحمل بطاقـة انتخابية من دائرة أخرى.. أو كان هناك أى شك فى حـقه فى التصـويت كأن تظهر آثار للحـبر السرى عـلى إصبعـه مثـلا أو كأن يكون اسـمه ضمن الـكشوف الممنوعـة من التصـويت ، ففى هـذه الحـالات جمـيعاً يـتاح له أن يعطى صوته ضمن مـجموعة خاصة تسـمى « التصويت المعلق » Tentative Balloting حـيـث يكون على اللجـنة المخـتـصـة أن تملأ استـمارة خاصـة توضح فيهـا سبب اعتـراضها على التـصويت العادى للناخب ووضعه ضمن مـجموعة « الأصوات المعلقة » ومع ذلك فيحتفظ الصـوت بالسرية الكاملة حيث يوضع داخل مظروف آخر فى صندوق « الأصوات المعـلقة » ليفحص بمعرفـة لجان فرز الأصـوات حيث تبـحث كل حالة عـلى حدة ويكون لهـا أن تجيـز الصوت أو تبطله إذا كان هناك سبب لذلك.

هذه الإجـراءات كان لهـا انعكاسـهـا على طريقـة تنظيم اللجنة حيث قسمت إلى ست لجان فرعية احتلت كل منها صفاً كاملاً يمر عليه الناخب فيؤدى بذلك الخطوات المطلوبة كلها.

وخصصت خمس لجان فرعية منها للأصوات العادية.

ولجنة فرعية واحدة للأصوات المعلقة.

كما أعد اثنا عشر ساتراً للإدلاء بالأصوات خلفها وذلك لضمان سيولة الحركة وعدم تعطيل عملية الإدلاء بالأصوات.

كـمـا خـصص صندوق للأصـوات العـاديـة وضع فى نهـاية السـواتر وصندوق لـلأصـوات المعلقـة وضع عند نهـايـة اللجنة الفرعية الخاصة بتلك الأصوات.

كان الأعداد رائعاً .. ودقيقاً.

ولم يكن ينقص إلا ممارسة كل ذلك على الطبيعة.. واختبار مدى اتفاق الأطقم المكلفة بإجراء الانتخابات لوظائفها.. ومدى تقبل الجمهور وتمشيه مع تلك الخطوات بغير وقوع خلط وارتباك وتعطيل لعملية التصويت.

وكان هذا وذاك يمثلان تحدياً لن تتضح مدى صلابة الإعداد الطويل والتدريب والإعلام الذى سبق الانتخابات فى مواجهته إلا عند بدء الانتخابات فعلا.. ولكن التحدى الأكبر الذى بدا مخيفاً.. كان التحدى السياسى.. الذى أحاط بالموقف ككل.

فقد كانت الصورة يوم الخميس السابق على الانتخابات المقرر لإجرائها يوم الأحد التالى ما زالت مغلّفة بالغموض والتوتر «والزمتة» التى فاقت «زمتة» الرطوبة القاسية فى ذلك الجو الاستوائى المشحون بكافة أنواع التوتر المناخى والبيئى والصحى والسياسى .. فوق كل ذلك.

فقد أعلن ممثل الأمم المتحدة فى كمبوديا السفير اليابانى القدير أكاشا وكنا نعرب اسمه فنطلق عليه « عكاشة » - ! - إن إدراة الأمم المتحدة قد بذلت قصارى جهدها للتوفيق بين الأطراف حتى اللحظات الأخيرة دون جدوى .. وأن الاتصالات المباشرة بفريق «الخمير الحمر» قد توقفت.. ولكنه يمكن أن يعلن أن المنظمة الدولية قد تمكنت من خلق المناخ الملائم بقدر الإمكان لإجراء الانتخابات فى ظروف تتوافر لها الحد الأدنى من الأمان اللازم للعملية الانتخابية وأن قوات الأمم المتحدة تقف على أهبة الاستعداد لحماية تلك العملية التى ناشد كل الأطراف التعاون لاستكمالها حتى يمكن للشعب الكمبودى أن يقول كلمته فى حرية.. وأن تبدأ كمبوديا مسيرة السلام والتقدم.

ومن ناحية أخرى أعلن الخمير الحمر استمرار مقاطعتهم للانتخابات وطالبوا الشعب بالتضامن معهم فى ذلك من منطلق

وطنى حيث إن تلك الانتخابات لن تخدم سوى أطماع المحتل الفيتنامى.

وكرروا مطالبتهم بجلاء كل الفيتناميين عن كمبوديا سواء كانوا من العسكريين أو من هؤلاء الذين خلعوا الزى العسكرى واندمجوا فى الحياة المدنية ليشكلوا طابوراً خامساً فى البلاد.

وقيل إن الخمير الحمر ذهبوا فى دعوتهم لمقاطعة الانتخابات إلى حد اتهام كل مَنْ يشارك فيها بالخيانة والتهديد بتصفيته جسدياً وعائلته وحرق أملاكه.. وأنهم بثوا أعوانهم المنتشرين فى أنحاء البلاد يروجون لهذا التهديد.. وأن كل مَنْ يتوجه للجان الانتخاب لن يضمن عند عودته أن يجد زوجته أو أولاده أحياء أو يجد بيته أو زرعه قائماً.

ولم يكن هذا التهديد نظرياً.. فقد وقعت بالفعل حوادث راح ضحيتها ممثلون للأمم المتحدة أو أعضاء فى القوات الدولية أو من القوات الحكومية وعناصر بالتالى من الخمير الحمر وراح كل جانب يلقى بالمسئولية عن تلك الحوادث على طرف آخر.. ومن ناحية أخرى اجتمع مجلس الأمن فى ساعة متأخرة من يوم الخميس حيث أصدر قراراً يدين فيه أى تحد لعملية الانتخابات التى ستجرى فى موعدها حسب الخطة المعدة لها سلفاً.. ويحذر من مغبة أية محاولة لعرقلة الانتخابات وأن المجلس سوف يواجهها بالأسلوب الفعال المناسب.

تلك هى الظروف التى سادت عشية إجراء الانتخابات فى كمبوديا .. تضاءلت إلى جانبها عواصف رياح الموسون المزبدة المرعدة التى أتت مبكرة عن موعدها المعهود كل عام .. وكأنها شاءت إلا أن تتضامن مع المناخ السياسى فى إشاعة جو غريب قاتم مشحون بالتوتر والاستعداد للانفجار فى أى لحظة.

وهكذا مضى يوم الخميس وهلّ صباح الجمعة.. وكان لذلك الصباح خصوصيته فى إقليم تارالاخ الذى كنا نشرف عليه حيث

توجد به أقلية كبيرة من المسلمين تبلغ عدة آلاف.. يحافظون على ديانتهم وتقاليدهم ولهم عدة مساجد صغيرة منتشرة فى الإقليم تحمل أسماء مثل مسجد «الرحمن» ومسجد «البركة».

وقد بدأ المسلمون الكمبوديون قبل الظهيرة فى التوجه إلى المساجد أفراداً وجماعات بملابسهم التى تميل إلى اللون الأبيض ويلفون رؤوسهم بعمامات أو بغطاء للرأس.. وكان من الطبيعى أن نتجه مع الذاهبين إلى المسجد لأداء الصلاة حيث بدأت مكبرات الصوت تعلو بالأذان.. ووجدنا مسجد البركة بسيطاً نظيفاً جلس فيه المصلون فى خشوع يقرأ بعضهم القرآن في صمت من مصاحف موجودة على أرفف بالمسجد أو من كتيبات صغيرة طبعت فى ماليزيا ووزعت على مساجد كمبوديا كمساهمة ماليزية فى نشر الدين تضمنت بعض الأدعية وبعض آيات القرآن الكريم.. كتبت باللغة العربية وبعض صفحاتها بلغة الملايو.

ثم كانت المفاجأة عندما حان وقت أذان الظهر حيث قام «أيمن» أحد ضباط الشرطة المصريين الثلاثة العاملين فى الإقليم.. فأدى الآذان على الطريقة المصرية بصوت رخيم يحرك النفوس بالخشوع والإيمان .. الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله.. أشهد أن محمداً رسول الله .. أشهد أن محمداً رسول الله .. حى على الصلاة .. حى علي الفلاح.. لا إله إلا الله.. ما أجمل أن يسمع المرء هذا النداء .. بل هذه المناجاة الربّانية فى تلك البقعة النائية من العالم.. وسط قوم يختلفون عنا فى كل شىء.. فى الخلقة.. وفى أسلوب الحياة.. وفى الطبيعة التى تحيط بهم.. ولكن تجمعنا بهم صفة الإنسانية والإسلام.. والإيمان بالله الواحد الأحد.. الذى لم يلد ولم يولد.. ولم يكن له كفواً أحد.

ونهض الإمام محمد بعد الأذان ليلقى خطبة الجمعة بدأها بمقدمة باللغة العربية الصحيحة.. ثم انتقل بعد ذلك إلى لغة «الخمير» وهى اللغة الكمبودية موضحاً للناس قيمة العمل فى الإسلام.

وبعد الصلاة رحب بنا إمام المسجد معرباً عن سعادته بوجودنا معهم وبوجود المصريين بينهم منذ أكثر من عشرة شهور مؤكداً أن هذه دفعة معنوية كبيرة للمسلمين فى كمبوديا أن يروا إخوانهم فى الإسلام من مصر بينهم يساعدونهم لتحقيق غرض قومي نبيل فى مكان ناء تماماً عن بلادهم.. وأن تلك هى المرة الأولى فى تاريخهم الحديث التى يلتقون فيها بمصريين وتونسيين ومغاربة وأردنيين ممثلين للأمم المتحدة.. وعلمنا منهم أنهم حرصوا خلال الأعوام الماضية من الحكم الشيوعى على الترابط فيما بينهم والمحافظة على الدين الإسلامي وخاصة بالنسبة للأجيال الجديدة.. وأنهم يتلقون عوناً محدوداً من الخارج من بعض الدول الإسلامية المجاورة مثل ماليزيا وأندونسيا وقد قدمت لهم ماليزيا بعض المطبوعات الدينية التى على الرغم من أنها محدودة إلا أن قيمتها الأدبية عالية جداً.

واستأنفنا بعد ظهر يوم الجمعة عملنا فى الإعداد للانتخابات حيث التقينا فى المعسكر التونسى التابع للأمم المتحدة الذى يقع على مسافة كيلومتر واحد من مدينة ترالاخ بقائد الكتيبة التونسية الشاب الملازم إبراهيم الإبراهيمي ومعاونيه من صف الضباط والجنود الذين كانوا ممتلئين زهوا بوجودهم فى هذه المهمة ممثلين للأمم المتحدة ومعتزين بتقديمهم صورة مشرفة لبلادهم تونس فى المجال الدولى ومعتزين كذلك بمشاركة إخوانهم من ضباط الشرطة فى مصر قلب العروبة التي يكنون لها أجمل الذكريات.. وقد روى لى القائد العام للفريق التونسى فى كمبوديا وهو برتبة العميد ذكرياته خلال حرب أكتوبر ١٩٧٢ وكيف أنه شارك ضمن أفراد قوة عسكرية تونسية رمزية فى التواجد بسيناء فى تلك الفترة.

وهكذا مضى يوم الجمعة بسلام وأصبح يوم السبت وهو اليوم السابق على الانتخابات.. ولم يكن التوتر قد انتهى لا على مستوى الطبيعة حيث هطلت أمطار غزيرة صحبها برق ورعد شديدان.. ولا على المستوى السياسى حيث ظلت غيوم التوتر

واحتمالات اندلاع الاشتباكات فى أكثر من موقع قائمة كذلك احتمالات تنفيذ «الخمير الحمر» لتهديداتهم لإفشال الانتخابات وإشاعة الذعر بين الناس ليمتنعوا عن المشاركة فيها قائمة كذلك.

وفى ظل تلك الظروف فقد تساءلت شخصياً عما إذا كان من الحكمة الاستمرار فى جعل الانتخابات تستمر لمدة ثلاثة أيام متوالية تعقبها انتخابات تجريها لجان متنقلة تصل إلى الناس فى أماكن نائية..؟ وعما إذا لم يكن من الأفضل فى ظل هذه الظروف من التوتر البالغ قصر الانتخابات على يوم واحد وإعلان ذلك على الناس بكافة طرق الإعلان، فإن ذلك من شأنه أن يقطع الطريق على مَنْ يخطط لإثارة القلاقل على مدى ما يقرب من أسبوع كامل ووضع حد للتوتر واحتمالات الانفجار القائمة بوضوح.. وقد نقلت تساؤلى هذا إلى المسئولين بالقيادة المركزية للأمم المتحدة بالعاصمة ولكن يبدو أن عجلة الإجراءات كانت فى ذلك الوقت قد دارت بالفعل ولم يعد بمقدور أى شىء أن يوقفها.. وكان على كل شىء أن يبدأ وأن يستمر حسب التوقيتات المحددة من قبل.. وأن تواجه الأمور بعد ذلك حسب تطوراتها التى لم يكن يعلم إلا الله مداها.

وقبيل الغروب فى نفس اليوم مرت علينا إحدى سيارات الأمم المتحدة تحمل لكل مراقب سترة واقية من الرصاص والشظايا وخوذة عسكرية من الصلب الثقيل.

وطلبوا من كل منا أن ينتقى المقاس المناسب له.. وقد وضعت السترة وهى صديرى يبلغ حجم الحشو بداخله حوالى ٥ سنتيمترات.. ولكن ما إن وضعت الخوذة على رأسى حتى وجدتنى أترنح تحت ثقلها الذى قد يصل إلى عشرة كيلوجرامات!! وكان علىَّ أن أحفظ توازنى تحتها حتى يمكننى المشى أو الالتفات بثبات وهى مسألة احتاجت إلى بعض الوقت والمران.. ونظرت إلى نفسى فى زجاج السيارة ولم أتمالك نفسى من الابتسام بل أطلقت ضحكة عالية.. لقد تطوعت فى الحرب عام ١٩٥٦ كضابط احتياط

حتى رتبة الملازم الأول وارتديت الملابس العسكرية التى لم تكن غريبة علىّ.. كما أمضيت فى ١٩٧٩ عاماً كاملاً فى كلية الدفاع الوطنى بأكاديمية ناصر العسكرية العليا وزرنا خلالها السودان وقضينا أياماً فى جوبا بجنوب السودان ووصلنا حتى حدوده الجنوبية مع أوغندا أيام عيدى أمين.

ولكن لم يكن يخطر ببالى للحظة أنه بعد بلوغى هذه السن وتقاعدى من خدمة الحكومة وعودتى للاشتغال بالمحاماة كمستشار قانونى ودولى أن أية ظروف سوف تضطرنى إلى ارتداء هذا الزى العسكرى المكثف الذى لا يرتديه إلا المقاتلون فى الأحراش ..!

لقد كنت أعتقد عندما قبلت الترشيح لهذه المهمة أنها مهمة سلام .. وأننا قد أتينا إلى كمبوديا لإجراء انتخابات حرة نزيهة اتفقت كافة الفصائل على إجرائها .. وليس وجودنا كمراقبين من جانب الأمم المتحدة إلا لضمان حياد كامل لتلك الانتخابات .. ولكن هأنذا أرى نفسى فى هذا الزى العسكرى الخطير .. وأجدنى من حيث لا أرغب ولا أريد طرفاً بل وهدفاً مطلوباً من معارضى الانتخابات ..

وضحكت وضحكت .. فقد كان ذلك هو شكل ما يمكننى عمله فى تلك اللحظة .. حيث لم يكن قد بقى على بدء الانتخابات سوى أقل من ١٢ ساعة .. وعقارب الساعة لا تتوقف ولا يريد لها أحد فى الواقع أن تتوقف .. فقد كنا على كل حال وراء هدف نبيل .. وكنا على استعداد للمضى فيما نحن فيه إلى آخر الشوط ..

ومهما ظهر من عقبات .. والله فى النهاية يفعل ما يريد ..

وفى تلك الليلة قررنا أن نذهب إلى الفراش مبكراً بنصف ساعة أى فى التاسعة والنصف مساءً .. حيث كان علينا أن نتوجه إلى المعسكرات منذ السادسة صباحاً للإشراف على عملية نقل معدات الانتخابات إلى الدوائر الانتخابية بحيث تكون جاهزة فى السابعة

صـباحـاً لتبـدأ عمليـة إعطاء الأصـوات فى تمام الثامنة صـباحـاً وتستمر حتى الرابعة مساء ..

وفيما نحن نستعد لنأوى إلى فراشنا فوجئنا برسالة لاسلكية عن طريق إرسال الراديو مـن قيادة الأمم المتحدة تبلغنا فيـها أن الموقع الذى نتواجد فـيه فى تلك اللحظة محاصـر بواسطة عناصر مسلحة مناوئة وأنهم قد يهاجموننا فى أى لحظة وطلب إلينا إطفاء الأنوار وأخذ الحـذر ومتابعة الموقف من جـانبنا ، وأن قوات الأمم المتحـدة العسكرية تستعـد للتعامل مع تلك العناصـر المسلحة وأن علينا أن نكون مـستعـدين فى أى لحظة للرحيل من الأمـاكن التى نبيت فـيها واللجـوء إلى المعسكر التونسـى الواقع خارج المدينة ، وإذا اقتضى الأمر سـيراً على الأقدام .. وأننا سنبلغ بأى تطورات فى الموقف ..

وقد انتقـلنا على الفور، فأوقفنا المولد الكهـربائى وساد الظلام الدامس وأمسك كل منا ببطارية صغيرة ليستخدمها عند الضرورة وظللنا بملابسنا فى انـتظار التطورات .. وما هى إلا لحظات حـتى بدأ القصف المتبـادل يضـيء السماء .. ويختلط ضـوؤه الإحمرارى بضوء البرق الفـضى الأخاذ .. وصوته بقعقـعة الرعد الذى نشط فى تلك الأثناء .. والمطـر نزل مدراراً .. وكـنا نرقب ذلك فى وسط الظلام الدامس كمـا لو كنا نرقب فيلماً مـثيراً من أفـلام الحرب .. ولم ينقطع الراديو وسط كل ذلـك من إرسال التـحذيرات وتبـادل الرسائل الـلاسلكية مع المواقع المخـتلفة كل حسـب حاله .. وبدأت فى الاستعداد لما سـأقوله لهؤلاء القادمين الغرباء إذا ما اقـتحموا المكان الذى نقيم فيه .. وكيف سـأشرح لهم إننا دبلوماسيون أتينا لبـلادهم فى مهـمة رسـميـة دوليـة ـ وسوف انبـهم بشـدة إذا لم يكونوا يعلمون أن كـمبوديا لهـا بعثة دبلومـاسية رسمـية فى مصـر تابعة للخميـر الحمر ـ وأننا نحـملهم المسئوليـة كاملة لأى شيء يحدث لنا ـ وكلما اقترب من مكاننا صوت دراجة بخارية أو

سيارة عسكرية كنت أعيد ترتيب العبارات التى سأواجه القادمين بها .. إلى أن يخبو الصوت ويبتعد رويداً رويداً حتى يزول ..

وهكذا مضت دقائق وساعات من الانتظار المتوتر القلق وقد بدت بلا نهاية .. ولم تجد لها حداً إلا بعد أن غلبنا النعاس الذى ظللنا نقاومه حتى قضى على كل مقاومة لنا وكانت الساعة الثالثة صباحاً عندما غبنا عن الوعى تماماً ورحنا فى سبات عميق استغرق ساعتين حيث نهضنا فى الخامسة صباحاً .. لنجد الرياح وقد سكنت والسحب قد زالت .. وباتت تباشير الفجر المضىء .. وبدت السماء هادئة صافية .. وبدأت الطيور تغرد فى الغابة .. وأصبحنا وكأن كل ما كنا فيه من ساعتين اثنتين كان كابوساً فظيعاً وليس حقيقة عشناها لحظة بلحظة .

وسارعنا بالاغتسال وتناول الشاى وإفطار سريع توجهنا بعده إلى المعسكر التونسى حيث علمنا بحدوث بعض الاشتباكات فى المساء وتبادل إطلاق الهاون والمورتر ولكنها انقضت بحمد الله بغير وقوع ضحايا بشرية .. وجمعنا مهمات اللجان الانتخابية .. وسرت فى مقدمة الفريق الخاص بمنطقتى وهى منطقة « سب » فى ركب من السيارات التابعة للأمم المتحدة تحت حراسة مسلحة لنكون على مشارف مركز الاقتراع الذى أقمناه من قبل فى المعبد الكبير بالمنطقة وسط الغابة مع أول تباشير أشعة الشمس الذهبية فى السابعة صباحاً ..

وهنا كانت المفاجأة الكبرى ... !!

المفاجأة التى لم تخطر ببال أكثر الناس تفاؤلاً ...!!!

فأمام مراكز الانتخابات ، والأمطار لا تزال تهطل .. والسماء ترعد .. اصطفت الآلاف من المواطنين الكمبوديين منذ الصباح الباكر.. رجالاً مسنين حفاة نصف عرايا.. ونساء منحنيات الظهر.. وشباب وزوجات حملن أطفالهن .. وقفوا جميعاً فى هدوء وإصرار .. ينتظرون فتح أبواب المراكز الانتخابية فى السابعة صباحاً .. ليدلوا بأصواتهم .. وليقرروا شكل الحكومة التى

يرغبون فى أن تحكم بلادهم .. وفى الواقع يعربون عن تصميم الشعب الكمبودى على الخروج عن دائرة العنف والدم المفرغة التى وجدوا بلادهم تدور داخلها على مدى عقدين متصلين من الزمان.

وقد بلغت نسبة الذين أدلوا بأصواتهم فى اليوم الأول ٨٤٪ من مجموع الناخبين المسجلين .. وارتفعت هذه النسبة فى اليوم الأخير إلى ٨٩,٩٪ من الناخبين المسجلين وهى نسبة تفوق ما يحدث فى بعض الدول الأوروبية العريقة فى الديمقراطية .

وفى مقال لى نشر بصحيفة «الأهرام» فى يوليو ١٩٩٣ بعد عودتى من مهمتى بعنوان : « درس الانتخابات فى كمبوديا .. » قلت فى ختامه :

« والمعنى الذى نخلص منه .. أن الشعب فى كمبوديا ورغم التهديد الذى تعرض له .. والتوتر الثقيل الذى صاحب عملية الانتخابات .. عندما شعر بأنه يمكن أن يدلى بصوته فى حرية .. ويعبر عن رأيه الحقيقى وتأكد أن ذلك الرأى سوف يحترم .. لم يتردد لحظة فى تخطى كل التهديدات .. وأصر على المشاركة شبه الكاملة فى عملية الانتخابات ..

وهو درس نأمل أن تعيه الدول النامية فى كل مكان .. فلا أمل أمامها فى التنمية والتقدم إلا بمشاركة شعبية حرة وحقيقية .

وإذا كان من المتعارف عليه فى ألعاب الرياضة الاستعانة بحكام دوليين ضماناً للحياد التام .. فالأولى أن يكون ذلك الحياد فى ألعاب السياسة .. ولا نقول بالضرورة بالاستعانة بحكام دوليين فى كل بلد .. ولكن على الأقل فإن الانتخابات ينبغى أن يعهد بإجرائها إلى جهات وأجهزة لها استقلاليتها وحيادها وتخول كافة الصلاحيات والضمانات التى تطمئن المواطنين إلى سلامتها وسلامة نتائجها .. وبذلك تزول أحد دوافع السلبية والمقاطعة الصامتة التى تتسم بها الانتخابات فى معظم الدول النامية .. وتشارك الشعوب حقيقة فى تقرير مصائرها .. وبناء مستقبلها .. » .

الفهـــرس

الصفحة

رقم الإيداع
٢٠٠٣/١٨٢٨

الترقيم الدولى
977 - 08 - 1093 - 2



مصر للطيران
تخصيص خدمة تليفونية للجمهور
٣٩٠٣٤٤٤
لسرعة الرد على استفساراتكم عن الحجز و تأكيد الحجز
و معرفة أسعار و مواعيد الرحلات
مصر للطيران
EGYPTAIR
www.egyptair.com.eg

الكتاب والمؤلف

الكتاب كما هو واضح من عنوانه من أدب المذكرات .. وهذا النوع من الأدب يتميز بتلاحم كبير بين المؤلف والكتاب .. وسواء تناول فيه ذكريات شخصية أو موضوعات عامة، فإن تناوله لها يحمل مذاق التجربة الشخصية .. فهو غالباً ما يكون شاهد عيان لها ..

ومن هنا كانت الصلة بينه وبين ما يُكتب هى صلة حميمة بشكل غير عادى .. وسوف ينعكس ذلك فى فصول الكتاب المختلفة وخاصة الفصل الثانى (حكايات دبلوماسية) والفصل الثالث عن (غزو الكويت) والفصل الخامس (مواجهة مع الخمير الحمر فى كمبوديا) .

وبعد .. فإن المؤلف الذى عمل بمهنة المحاماة زهاء سبع سنوات قبل أن يلتحق بالسلك الدبلوماسى .. قد تمسك دائماً بأن الدبلوماسية مهنة وليست وظيفة .. وأنه يلتحق بها على سبيل التجربة .. ولذلك ظلت استقالته فى جيبه من العام الأول .. فى نوفمبر ١٩٥٨ .. ولكن التجربة امتدت به عمراً كاملاً .. وحياة دبلوماسية حافلة.. تولى خلالها مناصب مهمة فى أوروبا وآسيا والدول العربية .. وكان مندوب مصر لدى الأمم المتحدة والوكالة الدولية للطاقة الذرية فى فيينا (من ٨٠ - ١٩٨٤) حيث رأس لجنة قانون الحماية النووية عام ١٩٨٣ ولجنة ضمان الإمداد بالمواد النووية عام ١٩٨٤ كما كان الرئيس المناوب لفريق الخبراء ا[illegible] والعلميين المعنى بإعداد اتفاقية لحماية طبقة الأوزون ، ورأس [illegible] إلى المؤتمر الدبلوماسى بمونتريال والذى أسفر عن توقيع [illegible] مونتريال لحماية الأوزون (١٦ سبتمبر ١٩٨٧) ثم عُين أول سف[illegible] دولة قطر بعد عودة العلاقات المصرية العربية فى أول يناير [illegible] أثرى العلاقات الثنائية بين البلدين .. كما عاش عن كثب [illegible] الكويت فى ٢ أغسطس ١٩٩٠ .. وتداعياتها المستمرة حتى اليوم .

وقد وظف هذه الخبرة العريضة فى كتابة هذه المذكرات .. ف[illegible] وجبة شهية للقارىء العربى الذى يرغب فى السياحا[illegible] الدبلوماسية وحكاياته المثيرة. كما قدم خبرته الواسعة للشباب من الدبلوماسيين المصريين والعرب فى تواصل واجب بين الأجيال .

تصميم الغلاف: سيد عبد الفتاح

طبع بمطابع دار أخبار اليوم